بيير آماديه جوبير
باسيل نيكيتين
توما بوا، ج. هـ. كرامرز
هلكوت حكيم

مبعوث نابليون في سجنه الكردي

وكتابات اخرى



بيير آماديه جوبير
باسيل نيكيتين
توما بوا
ج. هـ. كرامرز
هلكوت حكيم



مبعوث نابليون في سجنه الكردي

وكتابات اخرى

ترجمة وهوامش
الدكتور هَلكَوْت حكيم

اربيل – 2013



مدير مؤسسة بدرخان للطباعة و النشر

حميد ابوبكر بدرخان

اسم الكتاب: مبعوث نابليون في سجنه الكردي وكتابات اخرى

المؤلفون: بيير آماديه جوبير، باسيل نيكيتين، توما بوا، ج. هـ. كرامرز، هلكوت حكيم

المترجم: هلكوت حكيم

رقم الايداع: 570 - 2013

صورة الغلاف: بيير آماديه جوبير

تصميم: يعقوب يوسف

الطبعة: الاولى

سنة الطبع: 2013

مطبعة شهاب - اربيل

من مطبوعات مؤسسة بدرخان للطباعة و النشر

الى

حسين كركوش

المقدمة

بعد تردد دام فترة اقتنعت بالفكرة التي اقترحها علي صديق وهي أن اختار عنوان احدى الكتابات كعنوان رئيسي لهذا الكتاب. عندها لم اتردد في اختيار عنوان النص الأول حول مبعوث نابليون بونابارت لدى الشاه الايراني والذي عاش تجربة صعبة في سجن احد الباشوات الاكراد. صحيح ان عنوانا كهذا مثير، وهو من وضعي، لأن المستشرق السجين بيير آماديه جوبير لم يختر للفصل الذي يتحدث فيه عن قصة سجنه في عام 1805 و1806 اسما او عنوانا. ومع هذا لم اتردد ايضا في الاشارة ضمن عنوان ثانوي الى كتابات اخرى تضمها هذه الصفحات.

مايجمع هذه الكتابات هو الموضوع العام، الأكراد، اللغة التي كتبت بها أصلا واللغة التي ترجمت اليها. منها ما نُشِر قبل مايقرب من عقدين من الزمن ومنها ما لم ينشر حتى الآن، كملاحظات باسيل

نيكيتين التي كتبها بُعَيْد الحرب العالمية الاولى، وتعود الترجمة الى ثمانينات القرن الماضي. من هذه الكتابات ما نشر باللغة الاصلية قبل ما يقرب من قرنين، كما هو الحال مع ما كتبه ممثل نابليون حول الأكراد وحول سجنه في كردستان تركيا. ومنها ما كتب قبل اكثر من عشر سنوات بقليل، كما هو الحال بالنسبة لمقالتي حول مدينة كركوك في كتابات الرحالة الفرنسيين.

ثلاثة من هذه الكتابات (الشعر الغنائي الكردي، مندوب نابليون في كردستان وكركوك في الانسكلوبيديا الاسلامية) لا يعرفها القاريء الذي يقرأ العربية، الا نادرا. لأنها نُشِرت في مجلات كانت تصدر في اوروبا في زمن يصعب وصولها الى يد اكثرية القراء في العراق او في البلدان العربية او حتى المقيمين منهم في اوروبا. وكانت هذه المجلات محدودة التوزيع ومحصورة على نطاق ضيق بين المهتمين. ثم توقفت عن الصدور منذ عقود ولم يصدر من بعضها الا عدد او عددين.

ولو أن مقالة "كركوك في كتابات الرحالة الفرنسيين" نشرت اولا في اوروبا فانها نشرت ايضا في العراق فيما بعد من قبل دار ئاراس في اربيل.

اما مقالتي حول ظهور الطريقة النقشبندية في كردستان وهي خلاصة اطروحتي للدكتوراه في جامعة باريس، عام 1983، والتي نشرت في اوروبا، فقد اعيد نشرها عدة مرات في اوروبا وفي كردستان العراق، دون علم مني، لا عن بعيد ولا عن قريب. وقرأت اخيرا جملة

تشير الى نشرها من جديد في مجلة لا أعرفها ولم اسمع بها من قبل ولم تقع عيني عليها حتى الآن.

لقد ترجمت هذه المقالة مرتين الى اللغة الكردية ونشرت في كردستان العراق في عدة اماكن ولم اسمع بأمر الترجمة الا فيما بعد. وقد صادفني مرة ان قدمت لي امرأة عددا من مجلة "روفار" الكردية، مخصص لمؤسس الطريقة النقشبندية مولانا خالد النقشبندي، واذا بي افتحها واول المقالات هي ترجمة مقالتي التي يجدها القارىء هنا بين يديه. كنت اجهل ذلك، تماما كالسيدة التي قدمت لي العدد الخاص من المجلة. والاغرب أن المترجم الثاني لم يكن يعرف انها ترجمت ونشرت عدة مرات في المدينة التي يعيش فيها وتُنْشَر فيها المجلة التي نشرت ترجمته بحلقات. وحين قرأت جزءا من الترجمة الثانية صدفة، وفي مكتبة لبيع الكتب، اندهشت، لا لكون المترجم لم يخبرني بأمر الترجمة، تلك مسألة تعودت عليها اليوم، بل لأني وجدت في الترجمة ما لم اكتبه ولم افكر به ولن يمر يوما ببالي. فاتصلت بالمترجم رأسا عن طريق المجلة. واذا به يغنيني ويخصني بمحاضرة طويلة وقيمة حول فن الترجمة، اصولها واسرارها، ما يمكن فيها وما لايمكن، ما يحق للمترجم من تصرف وللكاتب من سكوت! ثم استغرب اني لا اقدم له جزيل شكري وخالص امتناني على انجازه وفضله علي، وانما اعاتبه على

بعض ما ترجم. ولم اعثر حتى هذه اللحظة على الاقسام الاخرى من هذه الترجمة الثانية.

ولو أن اقبالا كهذا على مقالة يفرح الكاتب بلا شك، الا انه لمن المؤسف الا تتم الترجمة بعلم منه. قد تكون له ملاحظات جديدة ومفيدة عما كتبه قبل عقود ومرت عليه الاعوام كما مرت على معلوماته وطريقة ادائه للكتابة وطرحه للتحليل.

اليوم يسعدني ان اعيد نشر او انشر لاول مرة هذه الكتابات التي اضفت الى بعضها ملاحظات وهوامش جديدة، توخيا لفائدة اكثر او تعقيبا على فكرة أو لاضافة نص جديد يوضح جوانب اخرى من الموضوع، كما هو الحال مع ترجمة حكاية اسر مبعوث نابليون التي انتشرت عند اكراد القرن التاسع عشر وسجلها الملا محمود البايزيدي، كما يراها القارىء في الصفحات المتعلقة بهذا الموضوع.

لقد حاولت ان اقدم للقارىء نصوصا واضحة بين ملاحظات المؤلفين وملاحظاتي وتعقيباتي. تركتُ هوامش كل مؤلف دون ان اشير الى ذلك في نهايتها. اما الهوامش التي تعود لي كمترجم لا كمؤلف فانها تنتهي بمختصري (هـ. م.) اي هامش المترجم. واذا جاءت ملاحظتي عقب هامش المؤلف فاني كتبتها ضمن فقرة جديدة.

وفيما يتعلق الامر بالهوامش حول المصادر المطبوعة بالاحرف اللاتينية، فقد ابقيتها على حالها مع ترجمة عنوانها فقط الى العربية. هكذا يستطيع الباحث ان يعود الى المصادر الاصلية ان اراد

ذلك ولا يبقى القارىء الذي لايعرف لغات تلك المصادر دون اية اشارة الى ماهيتها. ومن بين الكلمات المختصرة يشير حرف (.p) الى رقم الصفحة، و (.pp) الى ارقام الصفحة من الصفحة الفلانية الى الصفحة الفلانية. وتشير حرفي (.ed) الى دار النشر(edition) او الناشر الذي اشرف على نشر الكتاب وجمع مقالاته (editor). ويشير حرفا (.v و .t) الى كلمتي (volume, tome)، اي الجزء. ويشير (n°) اي (numero) الى عدد المجلة. وكما هو متبع في الدراسات فان عناوين الكتب والمجلات مكتوبة بالاحرف المائلة، وعناوين المقالات بين اقواس صغيرة. اما بالنسبة للكلمات الكردية فلم اتبع الاملاء الكردي الى فيما يخص عناوين الكتب، حيث نرى فيها الهاء المدورة التي تعادل الفتحة في اللغة العربية، والواو او الياء تحت رقم سبعة بالعربية (ۆ، ێ) فهما حرفان مفتوحان في تلفظهما.

هَلكَوت حكيم

استاذ في جامعة باريس

وعضو في المركز الوطني للأبحاث العلمية في فرنسا

مبعوث نابليون بونابارت في سجن كردي[1]

بيير آميديه جوبير[2]

---

[1] تشكل هذه الصفحات الفصل العاشر من كتاب : *Voyage en Arménie et en Perse,* (*رحلة الى ارمينيا وبلاد فارس*) للمستشرق الفرنسي بيير آماديه جوبير والذي ظهرت الطبعة الاولى منه عام 1821 والطبعة الثانية عام 1860. وقد استقبل الكتاب بحفاوة من قبل الجمهور الفرنسي. كانت كتابات الرحالة الى الشرق آنذاك موضع اهتمام فكري كبير. نشرت هذه الترجمة لأول مرة في العدد الاول من مجلة الثقافة الكردية التي كانت تصدر في لندن عام 1988، ص 35-42 تحت عنوان اخطا الناشر في تغييره: "كردستان والاكراد في عام 1821". نعيد نشر الترجمة هنا مع تصحيح الاخطاء التي وقعت فيها آنذاك مع اضافات اخرى. والعنوان موضوع من قبلنا. (هـ. م.)

[2] يعد بيير آماديه جوبير(1779-1847) واحدا من اهم المستشرقين الفرنسيين في القرن التاسع عشر. درس العربية والفارسية والعثمانية على يد استاذ المستشرقين سلفستر دو ساسي. رافق جوبير نابليون في حملته على مصر عام 1799 كمستشرق ومترجم. وحين اودى المرض بحياة جميع المترجمين المتقدمين عليه اقترب بحكم عمله من نابليون وتأثر به حتى اصبح احد القريبين منه فيما بعد. كلفه نابليون في عام 1801 بمهمة اخبار السلطان العثماني انه اصبح امبراطور فرنسا. ثم أرسله عام 1805 في مهمة رسمية الى ايران لايصال رسالة الى الشاه تهدف الى عقد حلف بين فرنسا وبلاد فارس ضد روسيا وبريطانيا. وكان نابليون ارسل في نفس الوقت رسولا آخر لأنجاز المهمة ذاتها. مر الاول عبر طريق بغداد ووصل الى العاصمة الايرانية الا انه قتل بعد اداء مهمته في العاصمة الايرانية

قبل وصف الطريق التي كان علينا ان نسلكها من بايزيد الى معسكر يوسف باشا، سوف نلقي نظرة على هذا الجزء الواسع من آسيا والذي نستطيع ان نطلق عليه، كما يفعل ذلك سكان الشرق المعاصرون، اسم

نفسها. فلم يستطع ان يوصل الجواب الايراني الى نابليون. واتهمت فرنسا آنذاك بريطانيا بمسؤولية قتل المبعوث الفرنسي. أما جوبير فانه سافر الى بلاد فارس عبر كردستان فوقعت له بعض ما يرويه هنا. التقى جوبير بحاكم بايزيد محمود باشا الذي اكرمه في البداية ثم القى القبض عليه طمعا بما كان يحمله معه. وزجه في سجن قصر احد آغاوات بايزيد، محمود أغا، لمدة زادت على الثمانية اشهر عانى خلالها الكثير. الا ان الصداقة العميقة التي ربطته بصاحب القصر انقذت حياته عدة مرات من محاولات الباشا قتله ومسح آثار عمله. هكذا تدخلت السلطات الفارسية والعثمانية فتم اطلاق صراح جوبير, وبعد عودته الى فرنسا قرر ان يرسل راتبا سنويا الى محمود اغا تلقاه طوال حياته ومن ثم ابنه حتى منتصف القرن التاسع عشر. نجح في اداء مهمته وعاد الى فرنسا بعد ما يزيد عن عامين على سفره فاستقبل كبطل قومي. وفي عام 1815 اصبح ممثل نابليون لدى الباب العالي مما ادى ذلك الى ابعاده عن المسؤوليات بعد سقوط نابليون في العام نفسه. فانضوى الى نشاطه العلمي والتدريسي حتى عام 1818 حيث قام برحلة الى آسيا جلب معه نوعا مع الماعز لتربيته في فرنسا وصناعة نوع من الكشمير من فروه. وكانت رحلته ومهمته ناجحة مما اعاد اليه الاعتبار. ويقول عن جوبير كاتب مقدمة الطبعة الثانية أنه كان واحدا من المستشرقين الذي اوصلوا فرنسا الى المرتبة الاولى في مجال الاستشراق. أستقينا هذه المعلومات عن حياة الكاتب من المقدمة التي كتبها سيديو تيلمس للطبعة الثانية من الكتاب وكذلك من الانسكلوبيديا الفرنسية الكبرى. (هـ. م.)

كردستان او بلاد الاكراد. وذلك لغرض تحديد عام لعدد من المناطق التي مهما اختلفت فيما بينها فانها تشترك في خضوعها لنفس التأثيرات وذات السيطرة.

إن البلاد التي يقطنها الاكراد تمتد طولا، أي من الشمال الى الجنوب، من جبال ارارات الى النقطة التي تلتقي فيها سلسلة جبال حمرين بايغا او جبل طارق (زاكروس بالنسبة للقدماء)، وتمتد عرضا اي من الشرق الى الغرب، من الجبال التي تفصل بحيرتي وان واورمية حتى حسن كيف، المدينة الواقعة على نهر الدجلة. إننا نحدد هذه البقعة الواسعة بخط يبدأ من جبل ارارات مارا عبر ديادين، توبراق كاله، موش، سيرت و جزيرة. ثم يتبع الضفة الشرقية من دجلة حتى المنطقة التي يفتح فيها هذا النهر ممرا عبر جبال حمرين. يحاذي هذا الخط الطويل سلاسل هذه الجبال حتى جبل طارق حيث يستمر الى منبع نهر شيخ حسن، صاعدا من هناك الى الشمال الغربي. يصل هذا الخط في شرق مدينة سنه الى ينابيع قزل اوزون، ثم يتقدم نحو موقع تخت سليمان عبر نهر ساروخ وسلسلة الجبال التي ترتفع بين البحيرتين المذكورتين. ويسير من شرق اورومية، سلماس وخوي عبر قطور وزيوه، وأخيرا يتبع الجانب الغربي من اراكس الايراني حتى يلتقي بجبال ارارات، نقطة انطلاقنا[3].

---

[3] اعتذر من القارئ عن كوني بعيدا عن المصادر التي يمكنها ان تعطي اسماء هذه المناطق كما تنطق باللغة المحلية. يجدر القول أن تحديد هذه المناطق كما

كان يسكن قديما قرب البلاد التي حددناها بخط الكلشيد في الشمال، الميديون في الشرق، الكلدانيون في الوسط، وتقع ارمينيا الصغرى في الغرب منها. وكانت هذه المنطقة تشمل كذالك بلاد السيتيين والتواكيين والفاريين. اما بلاد الكاردوخيين او الكورديين فكانت تشمل قسما كبيرا جدا من ارمينيا الكبرى وبابل واشور. وبما ان الجبال التي تغطي جميع مناطق كردستان اكثر ارتفاعا في القسم الشمالي منه في الوسط، حيث يقترب الواحد من الاخر، ينتج هذا اختلافا في المناخ. وتبعا لهذا انقسمت هذه البلاد الى قسمين، شمالي وجنوبي، عبر خط يبدا من جبال نمرود ويتبع جبال هيكاس، في جنوب وان، وينتهي في النقطة التي تتجه منها هذه الجبال نحو الشمال لتفصل بين البحيرتين.

يحتوي هذان القسمان من كردستان على الكثير من المراعي التي تغذي عددا كبيرا من الخرفان والأمعُز والتي يجلب بيعها مبالغ طائلة. اما عدد الحيوانات التي ترسل الى القسطنطنية فيصل الى مليون ونصف المليون رأس. بل مايُصَدَّر هو اكثر من هذا الرقم غير ان طول المسافة ووعورتها يؤديان الى موت الكثير من هذه الحيوانات. و يتكون كل قطيع من الف و خمسمائة الى الفي راس يقودها عدد من الرعاة الذين يستفيدون قدر المستطاع من الطرق التي تسلكها القوافل.

يقوم به المؤلف يعود الى فترة لم يكن فيها جميع مناطق الاكراد اداريا كما هو عليه الان. (هـ. م.)

ويتطلب ايصال هذه القطعان من وان الى القسطنطينية وقتا يتراوح بين سبعة عشر الى ثمانية عشر شهرا[4].

ينتج شمال كردستان الحنطة والشيلم والحلس الضروري لاستهلاك السكان. وينتج كذلك الزرنيخ والكبريت والشب.

الوديان الكبيرة والسهول في القسم الجنوبي من كردستان غنية بالرز والحنطة والشعير والسمسم والفواكه والتبغ والقطن. ويجمع منه العسل و نوع من المن يستخدم كحلوى. وتنتج هذه المنطقة كذالك نوعا ممتازا من الجوز يصدر الى اوربا عبر مينائي الاسكندرونة وازمير.

إن كردستان، حتى ولو حصرت بين الحدود المرسومة في جميع خارطاتنا الجغرافية القديمة، لا تخضع لقوانين سلطة واحدة، وتنقسم، ضمن العلاقات الحكومية، الى قسمين، احدهما والاكبر مساحة، يدخل ضمن تركيا الآسيوية، والآخر يشكل منطقة ضمن الامبراطورية الفارسية. ويبدا خط الحدود من سلسلة الجبال التي تفصل بحيرتي وان واورمية محاذيا سلسلة جبال خلسين حتى جبال جلجاشمة. ومنها يمتد محاذيا نهر مريوان تاركا على الشرق بحيرة روبار الصغيرة وحتى جبال طاق[5] يضم كوردستان تركيا، كما تحدده ثمانية سناجق او

---

[4] كان الجيش العثماني الذي حاربه الفرنسيون في مصر يعتمد في غذائه بشكل كامل تقريبا على الحيوانات المستوردة من كردستان.

[5] اعتمدنا لاثبات هذا الخط الاخير على مخطوطة العقيد فافريه Fabvrier المتعلقة بالرحلة التي قام بها مع العميد كاردان Gardanne الى بلاد الفارس.

مناطق ويحمل حكامها لقب الباشا. هذه السناجق هي بايزيد، موش، وان، دولمرك، عمادية، سليمانية، قلاجوالان وزاخو. فما عدا باشالق وان، حيث التعيين فيه بيد السلطان، لم يبق له غير الاسم في هذه المنطقة الشاسعة. إن الاكراد الذين يسكنونها لا يعتبرون انفسهم الا قليلا من توابع الباب العالي. وامتنع اغلبهم عن اعتمار الطربوش او ارتداء الملابس العثمانية. انهم يقترحون على الحكومة ان يتم انتخاب باشواتهم وبيكاتهم بعد اخذ آرائهم حول ذلك. ورغم ان الانتخابات تتم دائما من نفس العائلة الا انه من النادر الا تؤدي الى اثارة الاضطرابات بل وحتى معارك دموية.

ينقسم الاكراد الى مجاميع كثيرة من القبائل والعشائر يعين رؤسائهم من قبل الباشا او البيك. ولايمارس الشاه الايراني سلطة اوسع من هذه في قسم كردستان التابع له. غير ان قسوة الشاه الحالي فتح علي شاه تمنع البدويين في دويلاته من خلق المشاكل بقدر ما يثيرونها في تركيا. ومدينة سنه هي بمثابة عاصمة اكراد الامبراطورية الفارسية[6]. تعيش هذه الشعوب حياة حضرية او تتنقل بين القرى[7] و

---

[6] بالنسبة لبعض المدن الكردية لم تكن الحالة تختلف عن مثيلاتها ضمن الامبراطورية العثمانية. وواضح ان جوبير يعد فقط امارة اردلان وعاصمتها سنه ضمن كردستان. في حين اعتبر آخرون وفي نفس الفترة امارتي كرمانشاه ولرستان كردية ايضا. ولمزيد من المعلومات يمكن مراجعة كتاب كامبانيل وقد اعتمدنا على ترجمة الفرنسية المعنونة *تاريخ كردستان*. R. P. Giuseppe Campanile. O.

تدعي انتسابها الى المغول والاوزبك[8] الذين نشرت هجماتهم المفاجئة الكثير من الفوضى في آسيا. غير ان سعة وجمال عيونهم وانفهم المعقوف وبياض بشرتهم وارتفاع قاماتهم تكذب هذه الاصول التترية.

يعتنق جميع الاكراد بدون استثناء الاسلام وحتى اولئك الذين يعيشون تحت قوانين الشاه الفارسي فهم من طائفة عمر[9]. ويختلف اسلوبهم في ارتداء الملابس عن اسلوب الاتراك من حيث خفتها. ورغم انها متشابهة تقريبا في شكلها فهم يغطونها بمعطف من شعر الماعز الاسود. وعوضا عن الطربوش فهم يضعون طاقة من الصوف الاحمر. يحيط بها شال من الصوف المرقش بالالوان الصارخة، وتتدلى شرابات كثيرة من احدى نهاياتها حتى الاكتاف. فمظهرم هذا جميل جدا. وهم

P., *Histoire du Kurdistan*, traduit de l'Italien en français par Thomas Bois, L'Harmattan, Paris, 2004. (هـ. م.)

[7] يقصد الشعب الكردي بعشائره و قبائله. (هـ. م.)

[8] يعمم جوبير هنا ما سمعه حول الاكراد من افواه بعض من التقى بهم خلال رحلته. فبشكل عام كان الاكراد في هذه الفترة يدعون الانتساب الى اصول ايرانية او عربية او انهم كانوا يكتفون بالتعبير عن كونهم لا ينتسبون لا الى هذه الاصول ولا الى اصول تركية. (هـ. م.)

[9] هكذا كان يسمى اهل السنة خلال قرون الحروب العثمانية–الايرانية. والتي تقولبت في اطار مذهبي في أكثر الحالات. وكانت هناك نسبة من اكراد الامبراطوريتين تنتمي الى المذهب الشيعي، هذا ما لم يذكره المولف وربما لم يقرأ عنهم او يلتقي بهم. (هـ. م.)

يحلقون شعر رؤوسهم ويطلقون شواربهم. أما اللحية فلا يطلقها الا المسنون منهم.

الاكراد بارعون في استعمال الرمح وركوب الخيل، والنشاط الرئيسي للرجل هو تربية الابقار والأمعُز والخرفان والنحل. وفي اللغة الكردية التي تتكون من العربية والفارسية[10] وفيها عدة لهجات، تعني

---

[10] نشر المبشر الايطالي الاب كاروزوني، كتابا حول قواعد الكردية يبدأها بمقدمة تحتوي على تفاصيل كثيرة تبدو لي باطلة. (هامش المؤلف)

يُعتبر كارزوني "اب الدراسات الكردية "، كما يصفه المستشرق باسيل نيكيتين، من اوائل الذين اهتموا بالغة اللكردية. قضى حوالي عشرين عاما من حياته في كردستان. و كتابه اول مؤلف منشور حول هذا الموضوع ويحتوي على قاموس ايطالي- كردي يجمع اكثر من 4000 كلمة. ان عدم معرفتنا باللغة الايطالية يمنعنا من عرض ما جاء في المقدمة والذي لم يكن يخلو من الفائدة. اما رأي جوبير حول تركيب اللغة الكردية من اللغتين العربية والفارسية فهو نابع من قلة معلوماته بها وبشكل خاص من قلة الدارسات حول الموضوع آنذاك. وقد اصبح اليوم من المسلم به ان اللغة الكردية تنتمي الى الفرع الشمالي من المجموعة الغربية للغات الايرانية، وتعتبر ضمن هذا الاطار، لغة مستقلة لها بنيتها وميكانيكيتها االخاصة بها. فلم يكن جوبير مطلعا على اللغة الكردية. ولم تكن لديه مصادر اثناء دراسته في باريس يمكن مقارنتها بكتاب كارزوني للحكم على اللغة الكردية. وما أضافه الى معرفته بهذه اللغة هو استماعه الى كردية من كان يستطيع الحديث اليهم خاصة اثناء سجنه. وكان معظم مناقشاته تجري بالتركية أو الفارسية. لذلك يفقد حكمه على اللغة الكردية قاعدة موضوعية. (هـ. م.)

كلمة "مال"[11] "الممتلكات، الثروة، الغنى"، وتستخدم بشكل خاص لتعيين المواشي.

تشكل التمارين العسكرية المتعة الرئيسية للاكراد. وهم يحبون الحكايات كثيرا. ويؤلفون اغان موضوعها الحب الخلاعي[12] او الحرب او الاحداث المهمة والمأساوية. لقد نضموا قصيدة حول موت باشا بايزيد وحول أسرنا. ومع بساطها، فان الموسيقى الكردية ليست مجردة من الفن. انها تعبيرية و حزينة. المغني يغير الايقاعات ويطيل النغمات الرئيسية بالتأوهات والشهيق ويذرف الدموع وينتهي باطلاق اصوات حزينة. ويقدر الاكراد انبساط الصوت أكثر من دقته ورقته. وحين يمدحون مغنيا يقولون بانه يسمع من بعد فرسخ. وفي الحقيقة يشكل الغناء بالنسبة لهم حينما يهيمون في الجبال، وسيلة لتحديد المكان الذي يتواجدون فيه[13].

---

[11] هذه الكلمة عربية الاصل ودخلت اللغات التركية والكردية والفارسية.

[12] ما يقصده المؤلف هنا بكلمة "الخلاعي" ليس ما نفهمه اليوم من هذه الكلمة. الأغاني الكردية هي، كالأغاني عند العديد من الشعوب الجبلية، تعبير عن حب مكبوت او ممنوع عادة، لا يستطيع العاشق أن يذكر فيها اسم المعشوقة. وفيها الكثير من صور اللقاءات السرية بين العشاق في مأمن من نظر الفضوليين. وفيها ايضا وصف معبر لجسد المرأة. وتعبر المرأة ايضا في هذه الاغاني وبحرية عن حبها ورغباتها. ويتم كل هذا في أغان لا يعرف لها مؤلف. هكذا وصلتنا هذه الاغاني، مجهولة الكتاب، يمكن أن يقولها كل رجل وكل امرأة. (هـ. م.)

[13] هذا احد من دوافع الغناء وليس اهمها. فالهائم في الجبال يغني ايضا ليعبر

ان الاكراد يميلون الى النهب. وربما هذا واحد من الاسباب التي تدفعهم الى الترحال الدائم[14]. ومن الدوافع الاخرى لتذوقهم حياة الترحال هذه مجاورتُهم لعشيرة معادية او الحاجة الى العشب او قساوة الفصل. ففي الشتاء يبحثون عن ملجأ عند الفلاح الذي أخذوا منه في الصيف جزءا من محاصيله. وعند الحاجة يظهرون الرقة والخضوع بعدما كانوا مستقلين واشراس. وهم يرحبون كثيرا بضيوفهم.

وعند اقتراب الربيع يعود الاكراد الى حياتهم الخاصة بهم. ويختارون في الغالب لخيامهم المراعي الخلابة الواقعة على حافة الجداول. وتتكون خيامهم التي يفضلونها على البيوت الفخمة في المدن، من قماش مصنوع ومن الصوف الاسود المتين وهي على ارتفاع منخفض، ويحيطونها بسياج من القصب حيث يصنعون حوائجهم. وتكون السياجات خفيفة وسهلة النقل وهي تستعمل ايضا

عن احاسيس تطفو على ذاته. فوحدته بين طبيعة ذات جلال ورهبة تميل به الى الغناء دفعا لمشاعر الخوف والرهبة. وقد يكون الحنين والتسلية عن النفس من بين الدوافع ايضا. (هـ. م.)

[14] يشكل النهب واحدا من مصادر العيش لدى تجمعات الرحّل ليس في كردستان وحسب بل في كل مكان. وللنهب مفاهيم وقواعد تدعمهما طبيعة حياتهم والقيم التي تتولد منها. لا شك ان جوبير يقصد بشكل عام القبائل الكردية المتنقلة. وتخف هذه العادة بتطور حياة الترحال شيئا فشيئا الى حياة الاستقرار والاعتماد على الملكية الثابتة كمصدر اساسي للعيش. (هـ. م.)

لفصل سكن الرجال عن سكن النساء، وكذالك لفصل زرائب الحيوانات. وعادة ما توجد في وسط الخيمة حفرة ابعادها عدة أقدام تستخدم كتنور ومطبخ تمتلىء بالدخان عند هبوب اقل ريح. وقد تعوّد الرجال والنساء والاطفال على تحمل هذا العذاب. اذ تشد الخيول بحبال خارج الخيمة وتبقى في العادة مسرجة. وكل شيء مهيىء بشكل عام للرحيل في اية لحظة، ولاتحتاج المهمة الى اكثر من يوم واحد من العمل.

ان الشعوب التي تميل اكثر من غيرها الى السلب تكرم في العادة ضيوفها. ولهذا اقول وكلي اسف بان هذا يجعل المسافر المتمرس في الشرق يشعر بحالة الخوف وخاصة في المناطق التي توجد فيها مثل هذه التقاليد. والاكراد يقدمون الدليل على هذا. فان الغريب، ايا كان مظهره، حين يصل الى منطقة من مناطقهم يسرع الفرسان للقاءه. يقولون له، اهلا بكم، سوف نستقبلكم في بيتكم، هذه فرصة سعيدة بالنسبة لنا، علها تكون لكم ايضا[15]. ثم يقودونه الى خيمة اكبرهم سنا واكثرهم غنى واحتراما في العشيرة. وتبدا النساء بتحضير الطعام. وفي الوقت الذي يهيء بعضهن عجينة ثمينة، تذهب الاخريات للبحث عن العسل واللبن او مد افرشة من صنعهن على الارض. ويتكفل الشباب في الوقت ذاته بانزال الحمولات من على ظهر الخيول وغسل حوافرها وارجلها. وفي الشتاء، ولكي لا يلسع البرد على

---

[15] يستعمل الاتراك والاكراد والفرس صيغة (المخاطب) أو (الشخص الثالث) في حالات الجمع كصيغة بلاغية للتعبير عن الاحترام.

هذه الخيول، فانهم يركضون بها حول الخيمة مسرعين في البداية ثم يبطئون في السير. واذا بالرجل المسن ينادي "ايها الأطفال، اعتنوا بضيفنا كهبة من الله. يجب ان لا يعوزه ورجاله اي شيىء، ولاتنسوا الخيول، مراكب الصحراء. وانت ايها المسافر ليكن قدومك خيرا، انت هنا بين اهلك. لعل رضاك يضمن لنا بركة السماء. ولو قضيت ساعات سعيدة بيننا فسنكون اسعد منك".

تلك لغة مخلصة في هذه الحالات، لكن حينما يبتعد الاكراد عن بيوتهم، في الجبال وفي عمق الصحراء، فهم يحسبون كل مار بارضهم ملكا لهم. ولا يترددون في استعمال الكلام المبرقع والوعود الملفقة للوصول الى اهدافهم.

إن لباقة هؤلاء الرعاة ترتكز خاصة على محاولة ابعاد المسافرين عن كل مايمكن ان يثير قلقه، وهم يحاولون الهائه وخاصة عدم توجيه الاسئلة اليه مخافة ان لا تكون في محلها. "ربما تستحق الدوافع السرية لمروركم بكردستان الحكم عليها"، هذا مايقوله الكثير منهم. "قد تكونوا كفارا او اعداءا، لكننا نريد أن نجهل ذلك. انتم غرباء، وهذا يكفينا. من الواجب ان نحرص عليكم ونرعاكم ونقابلكم بالاحترام الذي لاشك انكم تقابلوننا به لو مررنا بأرضكم".

من النادر ان نترك خيم الاكراد دون ان نجبر على قبول بعض الهدايا تعبيرا عن سعادتهم بتقديم الضيافة لنا. وغالبا ما يعطون المسافر خروفا او كل مايمكن ان يفيده في طريقه. ويضيف رئيس

العشيرة في بعض الاحيان حصانا او بغلا الى مجموع الهدايا التي قدمت للغريب.

تسبق الخطوبةُ الزواجَ عند الاكراد الذين يعيشون في المدن او ينتشرين في القرى. وهم يحتفلون بالخطوبة كما يحتفلون بالزواج الذي يعتبر رابطة لاتفسخ. الحب والتقدير نادرا ما يكونان من بين الدوافع التي تقرر اختيار الزوجة. ولكن مع ذلك فان هذه المشاعر ليست مجهولة تماما عندهم[16]. لا احد يستطيع، ايا كان مستواه او عمره، الزواج دون رضى والديه. وتقدم الحادثة التالية الدليل على ذلك. انها تظهر حجم السلطة الابوية في كردستان وتبيِّن مدى احترام الاكراد المأساة.

---

[16] هذا الاتهام يوجه عادة الى كل الجماعات التي لا تنضوي دائما تحت لواء السلطة المركزية وقيمها. يمكن ان يقدم دليلا واحدا على بطلان مثل هذه الاقاويل وهو الادب الشعبي الكردي، الشعر الغنائي منه بشكل خاص. فمواضيعه الاساسية هي الحب والحرب. والاتهام ليس جديدا ضد الاكراد. وقد اشار اليه الشاعر احمدي خاني قبل جوبير باكثر من قرن. «لئلا يقول الناس ان الكرد/ لامعرفة عندهم، ليس لهم اصل واساس/ فاجناس الملل يملكون الكتاب/ الا الكرد فلا يحسب لهم حساب/ ولئلا يقول اهل النظر ايضا/ ان الكرد لم يجعلوا من العشق في الحياة مطلبا/ وانهم لا طالبون ولا مطلوبون كليا/ وليسوا محبين ومحبوبين البتة/ وانهم لم يوهبوا العشق/ وهم فارغون من الحقيقي والمجازي». يمكن العودة الى احمدي خاني، *مم وزين*، ترجمة الدكتور عزالدين مصطفى رسول، السليمانية، 2000، ص. 52. (هـ. م.)

كان محمود اغا يرأس القصر المنيع الذي كنت مسجونا فيه ببايزيد. ورغم كونه ولد بين رجال اشداء فانه كان رجلا فاضلا، يعترف اصدقاؤه بحكمته. وكان اعداؤه يخشون سطوته. كان له حفيد شجاع اسمه حسين يرغب بالزواج من شابة يحبها. غير انه لم يستطيع الحصول على موافقة جده. فلم يكن من الممكن تجاوز رفضه. ومن اجل تليين الشيخ المسن فقد لجأوا عبثا الى الصلاة والدموع، واستعملوا حتى نفوذ الباشا، ولكن كل هذه الجهود لم تنفع العاشق اليائس. ولم يعد لدى والديه واصدقائه اية حيلة للحصول على موافقة محمود أغا.

واخيرا تذكروا ان غريبا يائسا يئن منذ زمن في زنزانته تحت وطئة السلاسل الحديدية. فتوصلوا الى ان رأي الضعيف المظلوم ربما لن يذهب سدى. فجاؤا اليّ راجين التوسط من اجل حسين، فقبلت. في البداية لم افهم كيف يقبل محمود اغا رجائي وهو الذي قاوم حتى ذلك الحين كل ملحة. "ماذا سوف اقول؟" فقد كنت كافرا في نظره. ومع ذلك فقد تحدثت باسم الضيافة. قال الشيخ المسن: "ايها الغريب، ارادتي ومصلحتي تتعارضان مع ما تطلبه. رأيت دموع العائلة تنكسب وسمعت تهديدات رئيس صارم فلم اتزعزع. لكن مطلب الضيف مقدس. ان صوت البائس هو صوت السماء. ورغبته امر لا يقاوم. وما دمت ترجوه اذن سيلتقي العاشقان. ولكن تذكر بان هذا هو اكبر فضل امنه عليك. انظر انني لأحمر خجلا، رغم بياض شعري، من قبول رجاء شاب قليل التجارب، وذلك لاني احترم سلاسلك، واعتقد بان خفض

الرأس امام من ياسره البؤس يجلب رضى الله. يابني ليكن هذا المثل درسا لك. فلو رايت السماء واهلك وبلادك ولو واتتك الظروف لخدمة من في مثل حالك هذا فلا تنس ان اجمل صفات القوة هو السخاء"[17].

---

[17] خلال فترة سجن جوبير تكونت بينه وبين محمود أغا علاقة قوية. كان الاخير يستفسر منه عن الكثير من المسائل المتعلقة باوروبا ويروي له الحوادث التي تجري في بايزيد، والتي كانت دائما سيئة وكان الاغا يبذر الشك في نفس جوبير بان فاعلها هو محمود باشا. وكان حين يزور السجناء يجلب اليهم شيئا من الفواكه او باقة من الورود او بخورا لتطييب رائحة المكان. الا ان علاقة اخرى تكونت لدى جوبير مع السجان حسين لم تكن اقل قوة. اذ يذكر بأنه في اعمق حالات اليأس كان حسين يمثل له نوعا من الامل. "كان حسين يأتي كل ليلة ليتحدث معنا ويحاول دفع الحزن عنا. كان في الواقع يزيده بسبب الغموض والاختصار الذين يكنفان كلامه." ويذكر جوبير بعض هذا الحوار في كتابه. "- مساء الخير ياحسين، ما الجديد في الدنيا؟ سألته يوما. - كل شيء بخير. - هل وصل رسول من القسطنطينية؟ - الله اعلم. - هل حارب اصحابكم ضد اكراد عبدالله رئيس عشيرة سبكيس؟ - نعم. لقد هزمناهم. - هل قتلتم الكثير منهم؟ - جلبوا خمسين رأسا لسيدنا. - ما اخبار الحرب بين الفرس والروس؟ - هناك اخبار حسنة. يقال بان الهراطقة قد هُزموا من يريفان. - من هم الهراطقة؟ - الفرس. ويقال بان طوريس سوف يقع قريبا بايدي الكفار. - وهذه اخبار تفرح الباشا. - بلا شك. الهراطقة اخطر اعدائه. - هل تحدث اخيرا حول ما ينوي العمل بنا. - كلا. - هل لديه فكرة خنقنا؟ - الله اعلم. انا اجهل ذلك. - لماذا هذا التأخير؟ - سيدنا لا يعمل شيئا الا لأسباب مهمة. - هل رأيته هذا الصباح. - نعم. - هل حدثك عنا؟ - كلا. - ماذا عملت اذن في القصر؟ - منعوني أن أحدثك بذلك. - انت

توقفت المقابلة بوصول حسين، الذي نفذ صبره وجاء يريد معرفة مصيره. لقد راى وسمع كل ما جرى، فالقى بنفسه في احضان جده عرفانا بالجميل. اما بالنسبة لي فقد بقيت رغم ذلك مسجونا تحت الارض، ولم استطع مشاهدة سعادة العاشقين، اذ تم عقد قرانهما في اليوم التالي. وسوف يحتفل بزواجهم قريبا. ملؤوا اوان كبيرة بعصير من العسل، وكعادة البلاد، وزعوها على الناس في باب القصر وارسلوا لي شيئا من ذلك العصير مع باقة من الزهور. هكذا شاركت ومن اعماق زنزانتي في الفرح العام.

تناقض نفسك يا حسين. لو كنت تحب ربك ونبيك قل للباشا باننا نريد ان نطلب منه فضلا. – أي فضل؟ – أن يقتلنا. – ليمنعه الله من ذلك. – هذه الحياة التعيسة التي تركوني فيها تعادل الموت في قساوتها الف مرة. الاضطراب والحزن ينخران بي. اليست الراحة الابدية احسن منها؟ لا أجد كلمات اخرى اعبر بها عن آلامي. لا انتظر نجدة اخرى...". نفس الكتاب، ص 54-55. ويذكر جوبير بان الحارس حسين اخذ يسهر على حياتهم ليلا. فكان ينام على الغطاء الذي يغلق منفذ السجن وينهض عدة مرات قافزا اثر سماعه صوتا فيأخذ ببندقيته ويجول في المكان. (هـ. م.)

اسر مبعوث نابليون[18]

الملا محمود البايزيدي

يـروى انـه فـي عـام 1219 للهجـرة اثنـاء خلافـة الـسلطان عبدالحميد خان[19] كان محمود باشا حاكما على بايزيد. كان ينحدر من عائلة عريقة، وهو رجل ذو طبع عنيف وغدار. اثناء حكمه مر فرنسي ببايزيد في طريق سفره الى بلاد فارس والهند. كان يريد الوصول الى الحدود الايرانية. ولم يمر حتى ذلك الوقت اي اوروبي بالمنطقة ولم ير الاكـراد احـدا مـنهم. كانـت لـديهم آراء غريبـة حـولهم ولا يحملـون

---

[18] غدت قصة جوبير ففيما بعد حكاية يرويها سكان بايزيد بعضهم للبعض. ثم سجلها العالم الكردي الملا محمود البايزيدي في اواسط القرن التاسع عشر للقنصل الروسي في ارضروم الكسندر جابا والذي نشرها بدوره مع ترجمتها الفرنسية، في كتابه المعنون: *Recueil de notices et récits kourdes* (*جامعي رساليان و حكايتان بزمانى كورمانجي- رسائل وحكايات كردية*)، St.-Pétersbourg, 1860، ص 114-119 (للاصل الكردي) وص 98-102 للترجمة الفرنسية. نشر الكتاب بعد وفاة جوبير باكثر من عشر سنوات. ونقدم هنا الترجمة العربية للحكاية الكردية ايضا. (هـ. م.)

[19] كـان الـسلطان العثمـاني آنـذاك هـو سليم الثالـث الـذي حكـم الدولـة العثمانيـة خلال سنوات (1789–1807). وهو ابن اخ عبد الحميد خان وخلفه. (هـ. م.)

الاوروبيون في قلوبهم. كان الاوروبي جوبير يحمل معه كمية من الاشياء الثمينة والنادرة بالنسبة للمنطقة، مثل الساعات والبنادق ذوات الانبوبتين والمنظارات المقربة واشياء اخرى جديدة تماما في نظر سكان المنطقة. ما أن رأى رجال الباشا الاشياء الجميلة التي كانت بحوزة جوبير اخبروه بذلك فأخذه الطمع للحصول على ما كان مع جوبير. فخطط لسلبه وقتله. أمر جماعة من رجاله أن يرافقوه حتى الحدود الفارسية الآمنة. ولكنه اخبرهم بأنه سوف يرسل سرا جماعة اخرى من الاكراد للهجوم عليهم. حينها يجب عليهم ان يتركوا جوبير ويهربوا بأنفسهم. وكان المهاجمون قد وصلتهم الاوامر بان يلقوا القبض على جوبير ويقتلوه ويأخذوا منه ما كان معه ويجلبوه الى الباشا.

هكذا يترك جوبير بايزيد متجها نحو الحدود الايرانية. وحين وصوله الى جبال قزكول تهاجمه مجموعة من الخيالة الاكراد. وحسب الاوامر، ينسحب رجال محمود الباشا ويتركون جوبير من دون حماية. فيلقي الاكراد القبض عليه ويأخذون منه كل ما كان معه، الا ان ساعة موته لم تكن بعد مكتوبة من قبل الخالق. فيقودونه الى قصر الباشا. حيث يسألهم عن السبب الذي منعهم من قتله. فيجيب الاكراد بأنهم في الحقيقة لم يتمكنوا من رفع يدهم عليه فاقتادوه الى القصر. قد يكون هناك سبب غيبي لذلك، يرد الباشا، لذلك لا اريد ان انهي حياته في الوقت الحاضر. قد تصبح المسألة مهمة، انه شخص ذو مكانة، قد يطلبه السلطان مني. فقادوه في سرية تامة نحو القصر الذي يحتوي

على مخبأ مظلم محفور داخل صخرة. كان المخبأ قديما يملك منفذا في القسم الاعلى من الصخرة حيث انزلوا جوبير منه الى المخبأ.

كان الدزدار (آمر المكان)[20] في ذلك الوقت رجل مسن يسمى قاسم أغا. كان الباشا امره ان لا يعطي للسجين الا قطعة من الخبز وبعض الماء يوميا، ينزلان اليه من المنفذ. وكان الباشا قد اضاف انه سيفكر في أمره فيما بعد. بقي أمر هذا الاعتقال سرا على السكان، لم يكن احد يعرف عنه شيئا[21]، ما عدا الباشا وعدد من الغلمان[22] والحراس.

القي بجوبير في هذا المخبأ الفضيع خلال عام واحد[23]. ولكن الدزدار قاسم أغا وزوجته رحيمة خانم تعاطفا مع معاناة السجين. فكانا يخرجانه كل ليلة من سجنه ويستقبلناه لديهما بطيبة ويقدمان له الاكل ويعنيان

---

[20] كلمة دزدار تعني آمر المكان او المأمور وهي مأخوذة من اللغة التركية.

[21] انزل جوبير مع خادمه الفرنسي ودليله الارمني الى داخل حفرة تشبه البئر. كان عمقها ثلاثين قدما، طولها ستة عشر قدما وعرضها خمسة اقدام. لم يكن في السجن الا قليل من التبن واناء وابريق. بعد مدة اتوا بجثة أحد الآغوات الذي قتل بأمر من الباشا ليدفن في باطن ارض السجن. (هـ. م.)

[22] يستعمل الملا محمود البايزيدي في نصه الكردي كلمة الغلمان. ولا يستعمل الكسندر جابا في ترجمته كلمة أخرى بل يذكر الكلمة كما هي في الكردية وهي كلمة عربية الاصل. (هـ. م.)

[23] يذكر جوبير في الصفحة 93 من كتابه بانه القي في السجن مع اثنين من مرافقيه في **1805/7/7** واطلق صراحه في **1806/3/14**. (هـ. م.)

بصحته ويحاولان بكل الوسائل ان يكونا لطيفين معه ويسلوا عليه ظروفه ويشجعانه على التحمل وانتظار ارادة الله وانه سوف يتخلص من سجنه. كان جوبير موضع صداقة واهتمام دائم يعبران عنه سرا نحوه.

أن جوبير كان رجلا ناضجا وله الكثير من النباهة. كان مثقفا درس كل العلوم ويعرف الكثير من الامور وله كمال الصفات.

بقي جوبير سجينا خلال عام واحد. اثناء هذه الفترة وفي عام 1220 (1806 للميلاد) للهجرة انتشر مرض الطاعون في بايزيد وبارادة من الله مات محمود باشا واخذ منصبه اخوه ابراهيم بك حاكم قضاء خامور التابع لبايزيد، فاصبح باشا على بايزيد وبدأ الاقامة في المدينة[24].

---

[24] كانت مدينة بايزيد تتكون من قسمين. القسم المرتفع وتسكنها العشائر الكردية ولكل واحدة منها محلتها. والقسم المنخفض حيث يعيش الارمن. واثناء سجن جوبير انتشر مرض الطاعون في المدينة بشدة لم تعرف مثلها منذ اكثر من ثمانين عاما. وانتشر المرض بشكل مرعب في القسم المرتفع منها. ويبدو ان عددا قليلا من الاكراد تمكنوا من النجاة بانفسهم. كان حسين، حارس جوبير، يذهب يوميا لدفن الموتى. ورغم انه اصيب بالمرض الا انه لم يمت. وحين مات محمود باشا انقسمت المدينة الى قسمين لتعيين خلف له. فالبعض كانوا يميلون الى اخيه ابراهيم الذي كان مسنًا، والبعض الآخر الى ابنه احمد الذي كان شابا. وكانت العشائر تميل الى هذا الشاب الذي تم انتخابه اخيرا. وكانت العادة ان ينتخب الباشا من قبل اهل المدينة الا في حالة معارضة الباب العالي. واراد احمد باشا قتل

كان ابراهيم باشا يجهل ظروف اعتقال جوبير. اذ بعد ايام من وصوله الى دفة الامور والبدأ باصدار الاوامر كما كان يريد، جاء اليه الدزدار محمود اغا واخبره بما حدث اثناء حكم اخيه محمود باشا، قائلا له: "منذ مايقرب من عام تم اعتقال الاوروبي جوبير وهو في حالة يرثى لها ويستحق العطف. ماذا تأمر في هذا الموضوع؟ يتمنى هذا المسكين لسيادتكم كل الخير والرفاه ويتمنى ان يوضع حد لمعاناته، اما ان يقتل في سرعة او ان يطلق سراحه. ومع انه اوروبي، الا انه من النبلاء (بكزاده) وهو انسان نبيل، ذو صفات رائعة ولطيف المعشر. ان اطلاق صراحه يعود الآن الى ارادتك. حينها تقوم بعمل جيد. ومع هذا سوف اقوم بما تأمره".

حين علم ابراهيم باشا بامر جوبير عبر عن استغرابه ورأى المسألة غير لائقة ولا يمكن وصفه. فأمر رأسا باطلاق سراح جوبير وجلبه امامه. فقال له الباشا: "اني متألم جدا بما حدث لك، ارجو منك الا تؤاخذني. لقد تم التصرف معك بما لا يليق. وايا كان الامر، اطلب منك العفو. اعمل لي قائمة بالاشياء التي اخذت منك. سارسل من يبحث عنها ويعيدها اليك. ستكون حرا بعدها للسفر الى بلاد فارس مع كل ما يليق بك من التقدير". وقام ابراهيم باشا خلال عدة ايام بكل

جوبير ورفاقه، الا ان محمود أغا وقف ضد خطته. ولم يمض وقت طويل على انتخابه حتى مات هو ايضا فانتخب عمه ابراهيم ليحل محله. وتم اطلاق سراح جوبير في فترة حكمه. (هـ. م.)

انواع التقدير نحو جوبير. جمع الاشياء الثمينة التي اخذها اخوه محمود باشا وارسل يبحث عن كل صغيرة وكبيرة منها مما بقي عند الغلمان والاكراد واعادها لجوبير واهداه حصانا رائعا كهدية منه اليه بعد ان عوضه عن كل ما خسر. ترك جوبير هدايا تذكارية جميلة لدى قاسم آغا وزوجته، وابدى سخاءا كبيرا نحوهم. ثم ودع ابراهيم باشا جوبير مع كل التقدير الذي لم يكن يتصوره. ارسل معه مرافقين حتى مدينة تبريز حيث وصل بسلامة[25].

بعد فترة خصص جوبير راتبا سنويا بخمس وعشرين فرنكا للدزدار قاسم آغا. كان يرسله كل عام عن طريق القنصلية الفرنسية في القسطنطينية. وكانت القنصلية ترسل الراتب الذي كان يعادل الف قرش تقريبا الى طرابزون لكي يسلم الى تجار مقابل ورقة استلام. وكان هؤلاء يتكفلون بايصال الراتب الى الدزدار محمود آغا في بايزيد والذي

[25] في اليوم الذي كان عليه ان يترك بايزيد، جاء محمود أغا وجميع افراد علائلته بملابس العيد ليعبروا عن سرورهم باطلاق سراحه. ورفضوا ما اراد جوبير ان يقدمه لهم من المال. الا ان جوبير ترك لديهم رسالة باللغتين التركية والفرنسية وهذا نصها: "في عام 1805 للميلاد، 1220 للهجرة، تمت وبدناءة خيانة فرنسي كان مكلفا بمهمة دبلوماسية لدى فتح علي شاه ايران، سجن ورمي في مخبأ قلعة بايزيد. انه يدين ببقائه على الحياة الى كرم محمود أغا، حاكم مايسمى بالقلعة. ان المسافرين الذين يمرون بهذا البلد يستطيعون ان يجدوا هذا المضيف المقدس المليء بالحياة والسعادة الكبرى". انظر كتاب جوبير المشار اليه، ص 74. (هـ. م.)

كان يعطيهم وصلا عليه ختمه يؤيد استلامه المبلغ. وكان الوصل يرسل الى جوبير في فرنسا. واستمر ارسال هذا المبلغ حتى موت محمود آغا. واستلمه من بعده ابنه محمود آغا الذي كان يستلم الف قرش سنويا بنفس الطريقة السابقة. وكان القنصل الفرنسي في طرابزون يسلمه الى القنصل البريطاني في بايزيد، السيد برانت الذي يرسله بدوره الى قاسم آغا ابن الدزدار محمود آغا مقابل وصل يرسله بدوره الى جوبير. وكان هذا الاخير يرسل ايضا كل ثلاثة او اربعة اعوام عددا من الهدايا، مثل الاقمشة واشياء اخرى من صناعة فرنسا، عن طريق التجار الذين كانوا يوصولون الهدايا الى قاسم آغا دائما. يجب علينا الاعتراف بان جوبير كان رجلا سخيا جدا، وله الكثير من المشاعر الطيبة وذو طبع نبيل، لانه استمر في اداء هذا العمل خلال سنوات طويلة حتى وفاته، ان كان تجاه قاسم آغا او نحو ابنه. الصفات النبيلة لجوبير اصبحت من عداد الامثلة في كردستان. فالكل ينبهر من ان يتمكن اوروبي من ان يجمع كل هذه المشاعر المتميزة. وما يستحق الاعجاب اكثر هو اننا لا نجد الا بصعوبة من يمتلك كل هذه الصفات بين المسلمين. وكما يقال فان جوبير اصبح مشهورا في بلاده. وكتب عددا من الكتب باللغة التركية[26] وكتب اخرى. ولم يترك الحياة الى منذ فترة وجيزة. ورغم أن الموت قد اخذه منا، الا ان شهرته وسخاءه

---

[26] يقصد المؤلف هنا بلا شك كتاب جوبير حول قواعد اللغة التركية. (هـ. م.)

وصفاته الجميلة، الشبيهة بقصة نوشيروان العادل[27]، سوف يبقى الا الابد في كردستان. فالكل معجبون بجوبيرالذي رغم بعد بلاده ورغم اختلاف قوميته ودينه، اغرق المسلمين باعماله الكريمة واهتمامه الكبير. والحقيقة هي اننا لا نستطيع ان نمدح بما فيه الكفاية اخلاقا مثل ما كان لديه. تلك هي قصة جوبير المعروفة لدى غالبية اكراد مدينة بايزيد.

---

[27] يعتبر الاكراد نوشيروان كاعدل الملوك المشهورين.

أنوشيروان ويعني الروح الخالدة (579-531) ويسمى بخُسرَوْ الاول (والمعرب بكسرى الاول) ويعرف ايضا بالملك العاقل والملك العادل. احد اهم الملوك الساسانيين. وصل الى الحكم بعد ان قتل اخوانه الذين نافسوه على السلطة. عرف بانجازاته الضخمة في بناء المدن والقصور والجسور والطرق. ازدهرت العلوم والفنون في عهده في بلاد فارس بشكل لا سابق له. (هـ. م.)

ملاحظات حول الأكراد[28]

باسيل نيكيتين

الأكراد ليسوا معروفين في فرنسا؛ فبغض النظر عن عدد من المقيمين في الشرق والرحالة أو العلماء المتخصصين، أمثال دو مورجان[29]، فان الرأى العام منور بشكل سيء جداً حول هذا الموضوع. والاشارة تأتي في أكثر الاحوال وبشكل غامض الى الدور المؤسف الذي لعبه هذا الشعب في أحداث أرمينيا[30]. من الطبيعي أن هذا

---

[28] نشر باسيل نيكيتين هذه المقالة في مجلة *Mercure de France* الفرنسية في عددها 155 الصادر عام 1922 حيث كانت المسألة الكردية، بما فيها تأسيس دولة كردية، قد أثيرت في المحافل السياسية العالمية. (هـ. م.)

[29] Jacques De Morgan بحاثة فرنسي سافر الى ايران في أواخر القرن التاسع عشر في بعثة علمية. كتب عددا من المقالات والكتب حول الاكراد واللهجات الكردية ويعتبر واحدا من الباحثين الذين كتبوا عن هذا الشعب من منطق بعيد عن روح الموضوعية والعلمية. (هـ. م.)

[30] مجازر العثمانيين بحق الشعب الارمني كثيرة. وقع آخرها عام 1915 حيث قتل فيها حوالي مليون و نصف ارمني. وتبقى مسألة كيفية ومدى مشاركة الأكراد فيها بين أخذ ورد حتى يومنا هذا. فمن كان وراء مشاركتهم؟ ولماذا شاركوا فيها والى اية درجة كانت مشاركتهم؟ ومن هم الاكراد الذين أخفوا أعدادا من الارمن وانقذوهم، بشهادات من هؤلاء انفسهم، معرضين بذلك حياتهم للخطر؟ علامات إستفهام كثيرة، دفعت بمؤرخ كردي، الدكتور كمال مظهر أحمد، الى تخصيص فصل كامل من كتابه (كردستان في سنوات الحرب العالمية الاولى)، ترجمة محمد

التجاهل يضر بفهم مسائل سياسية تظهر الى الوجود في المناطق التي اهملت في الماضي وغدت اليوم تنادي بحقها في الحياة، وتطالب بعدم اهمالها، دون الحديث عن مشكلة الموصل، والتي لا يُستبعد عودتُها الى بساط البحث، حينئذ يكون تسليط بعض الاضواء على الأكراد ذا قيمة كبرى. وبعيدا عن أن نشغل أنفسنا بالوضع العام لكردستان، نعتقد ان مشكلة بلاد الرافدين، والتي يستمر الحديث عنها، يُزيد من أهمية الاهتمام بالعناصر المختلفة من الشعوب التي تملك دورا فيها. ولو حكم بالنتيجة على هذه الفائده بكونها عابرة، فليس من الممكن اهمال قسم من بلاد الرافدين يسكنه الأكراد، هذا الشعب البعيد عن ان يرضى باية سيطرة اجنبية. ولنتذكر ما أوردته الصحف في السنة الماضية من أنباء متناثرة حول هجمات الأكراد على الضباط والموظفين البريطانين في

الملا عبدالكريم، بغداد،1977، حول (الكرد والدم الارمني المراق) ص235-302. ما يميز هذه الدراسة هو كون كاتبه كرديا لم يحاول انكار أو تبرئة هذه المشاركة، بل حاول الوصول الى الدوافع الخفية وراءها وتحديد هوية المشاركين فيها. حيث كان من بينهم اقطاعيون، يبحثون عن امتلاك أراضي الارمن، رجال دين، يدفعهم تعصب ديني أعمى، مجرمون محكوم عليهم لجرائم عامة يطلق سراحهم بشرط اشتراكهم في المذابح وبملابس كردية، جنود أتراك يقتلون الارمن وهم بالزي الكردي، كل هؤلاء المشاركين في مجزرة ابادة الأرمن يبين كيف أن الدولة العثمانية كانت تخطط لها وتعمل بكل ما في وسعها كي تضع المسؤولية كاملة على عاتق الأكراد. ففيما يخص المشاركة الحقيقة للأكراد أو الدور الذي لعبوه مع سياسة السلطان العثمانية أو ضدها لانزال نحتاج الى المزيد من الدراسات. (هـ. م.)

عقرة وعمادية (في شمال الموصل)[31]. ورغم انه قد ذكر اسم الأكراد في انباء بلاد الرافدين، فالحدس وارد في أنهم لن يبقون ساكنين، وانما يترصدون الفرصة السانحة.

ليس بامكاننا هنا ان نعدد جميع العشائر الكردية التي تعيش في القسم الشمالي الشرقي من بلاد الرافدين. اذن فلنذكر الأهم منها، كالجاف والهموند في اطراف السليمانية، شوان مابين التون كوبري وكركوك، دزيي بالقرب من اربيل، الطالباني والداوودة والزنكنة والباجلان، على طول شط العظيم وباتجاه مدينة خانقين.

ان هدفنا في هذا العرض الموجز هو بلا شك بيان البنية الاجتماعية للأكراد والدخول قليلا في حياتهم وعاداتهم.

كل هذه العناصر التي تشكل غالبية بدوية[32] تبدو للنظرة الاولى بأنها تنتظم حسب اسس التباعد والتشتت المتناقض كثيرا مع مفهومنا حول الحياة الاجتماعية. فليس الشعب الكردي في ايران وتركيا حيث يمكن تقدير نفوسه بحوالي 3 ملايين نسمة[33] منقسما الى عدد لا يحصى من

---

[31] في بداية عام 1921 أُجبر الانكليز على توجيه حملة «ضد الاكراد المتوحشين في شمال الموصل».

يذكر باسيل نيكيتين هذا المقطع باللغة الانكليزية. (هـ. م.)

[32] في الوقت الحاضر قل عدد العوائل البدوية في كردستان، وخاصة بين العشائر التي يذكرها المؤلف. (هـ. م.)

[33] لم يعد هذا الرقم في الوقت الحاضر كما كان عليه في زمن باسيل نيكيتين.

العشائر فحسب بل ان هذه العشائر ذاتها تتشعب عادة الى فروع صغيرة جدا بسبب المعارك المستمرة بين اعضاء المجموعة نفسها، وذلك لتحقيق اطماح الرؤساء الوراثيين في الابقاء على سلطاتهم. ويتمكن البعض منهم احيانا فرض ارادتهم، واحيانا، يترك البعض الاخر العشيرة تجنبا لوطأة العداء. طبيعي ان العلاقات بين العشائر هي علاقة السلام المسلح، ولو ان العشائر المتجاورة لا تتحارب لاحترام حق الجوار، فهي دائما على استعداد وفي حالة انتباه، وهذا قابل للفهم في الاوساط التي ما زال مفهوم التملك فيها على حالتها البدائية، حيث لم تنظم العلاقات حسب سلطة نافذة مقبولة ومعترف بها، والتماسك الاجتماعي غير موجود، وكل مسلح هو حاكم نفسه.

علينا الا نستنتج، من هذه الملاحظات العامة بأن الأكراد يعيشون في حال من الفوضى المستمرة وانهم لا يعرفون اية سلطة. الواقع بعيد عن هذا. فالشعب يبدو للنظرة الاولى مفككا وغير مستقر، له تنظيمه الطبقي الخاص، يحتل الشيوخ فيه المكانة الأولى.

فرغم القمع والمذابح الوحشية التي يتعرض لها الأكراد، منذ ذلك الوقت وحتى الان، وبشكل مستمر، فان التقديرات الاخيرة تقدر عدد الشعب الكردي، في هذين البلدين فقط، بأكثر من21 مليونا. ويقدر عددهم في البلدان الاخرى التي يتواجدون فيها شعبا وارضا وفي المهجر بأكثر من 10 ملايين نسمة. (هـ. م.)

ان غالبية الشيوخ ينحدرون من المبشرين العرب الذين جاؤوا لنشر الدين الاسلامي في جبال كردستان[34]، فاستقروا فيها واندمجوا

---

[34] ليست هذه الفكرة صحيحة الا في نادر الاحوال. ففي كردستان ولدى كل الشعوب الاسلامية غير العربية نجد شيوخا وسادة يدعون انتسابهم الى اصول عربية عبر شخصيات كالامام على وخالد بن الوليد بالاخص، ويقدّمون شجرة تثبت حقا، عبر الاسماء المذكورة، صحيحة كانت أم مختلَقة لا يمكن التأكد منها، انتسابهم الى أحدى هاتين الشخصيتين التاريخيتين اللتين مضى على موتهما اكثر من الف واربعمائة عام. ونجد مثل هؤلاء السادة والشيوخ بمئات الالوف في أفغانستان وهندستان، في تاجكستان واوزبكستان، في مصر وايران والى آخر ماشئنا من دول وشعوب اسلامية. فكم من سادة كانوا قبل فترة مثل سائر الناس واذا بهم بين ليلة وضحاها يستيقضون من حلم اخبرهم انهم سادة من اولاد الامام على وما عليهم الا ربط الاحزمة الخضراء وارتداء ملابس من مثّلهم اصحاب خير وبركة وما عليهم الا استثمار هذا الانتساب اقتصاديا واجتماعيا وروحيا والخ، كامثالهم من السادة والشيوخ. ولو كان هذا الانتساب صحيحا بالنسبة لهذا العدد الضخم منهم في عالم اليوم لاستنتجنا انهم تطوروا خارج نسبة الوفيات عبر اربعة عشر قرنا في عالم اسلامي لم يكن يملك اقل الامكانيات والظروف للوقوف بمواجهة هذا القانون. فنسبة الوفيات عند الاطفال كانت حتى سنوات اخيرة في بعض البلدان الاسلامية تزيد عن 70% من الاطفال. ان ظاهرة الانتساب الى اصول تاريخية تعود الى العصر العباسي حيث ازدهرت تجارة كتابة شجرة العوائل، خاصة بعد انقراض النفوذ الايراني وتطور مسألة الشعوبية كسلاح ايديولوجي في الصراع الايراني- العربي. فامتلاك مثل هذه الشجرة يحمي اولا صاحبها من اتهامه باصول ايرانية، وتفتح له بعد ذلك باب الكسب والاثراء والمكانة المرموقة في المجتمع. وقد تقلص

شيئا فشيئا بالأكراد لدرجة غدوا، اليوم، دعامة الشعور القومي الكردي والمدافعين عنه. وقد حدث تغيير آخر لدى هؤلاء: فمن مبشر ديني ومرشد صوفي، حيث كانوا في البدء، تحولوا بتأثير توسع دائرة نفوذهم وازدياد عدد تابعيهم، الى رؤساء دنيويين، فاستثروا وغدوا اصحاب مواش في امرتهم الكثير من الأتباع المسلحين[35].

نذكر من الشيوخ ذوي النفوذ لدى اكراد بلاد الرافدين، في السليمانية، الشيخ احمد ابن الشيخ سعيد الذي يمثل ابناء كاك احمدي شيخ. فالشيخ سعيد وعائلته الكثيرة العدد، والتي تتباهى بأصله القريشي (نسبة الى قبيلة النبي) كان لهم نفوذ واسع فيما مضى، وقد وضعوا انفسهم في خدمة السلطان عبدالحميد للدعاية بين اكراد ايران لتسهيل الالتحاقات بالاتراك، و لم تنته ميول هذه العائلة الى العثمانيين الا بعد الحرب، حينما انتهت اعمال لجنة تعيين الحدود التركية– الروسية، والتي اشترك فيها المندوب الروسي والانكليزي. ولنعد الى الحديث عن الشيخ سعيد، اذ يتوجب القول بأنه لم يُجْلَب بسرعة الى الموصل فقط،

عدد من يدعون مثل هذه الانساب في وقتنا الحاضر في حين تقلصت نسبة الوفيات بسبب تقدم الطب وانتشاره في البلدان الاسلامية ايضا. فالشيخ اصبح اليوم، ككل افراد مجتمعه، مريضا ينتظر وقته ليعرض آلامه على الطبيب دون أسف على زمن كان هو فيه طبيبا يعالج آلام الاخرين روحيا وجسميا. (هـ. م.)

[35] في الحقيقة، ليست هذه ميزة يختص بها شيوخ كردستان فقط، بل هذا دينهم في كل زمان و مكان. (هـ. م.)

ذلك للشك في خدمته لمطامح الباب، وانما قتل ايضا. لهذا هرب ابنه البكر، الشيخ قادر، والتجأ الى عشيرة الهموند واثارهم ضد الاتراك، والتحقت عشيرة البارزانيين بالتمرد، فقاسى الاتراك الكثير من الاهوال لاعادة الاشياء الى نظامها، فبعد عدة هجمات عسكرية فاشلة، تنازلوا و حققوا جميع مطالب عائلة الشيخ المقتول. والملاحظ ان الشيخ معروف، الاخ البكر والنائب عن الشيخ سعيد لايعرف اللغة التركية اطلاقا، في وقت تشكل معرفتها قاعدة عامة تقريبا بين غالبية الأكراد.

وثمة عائلة أخرى ذات نفوذ واسع هي عائلة الشيخ علي الطالباني، حيث يسكن ممثلها الشيخ محمد علي، في مدينة كركوك ويمثل عشيرة طالباني. والى الشمال في العمادية (او بهدينان التي اشرنا اليها سابقا) تحكم عائلة الشيخ نورالدين بريفكاني. ويحكم في عقرة وزيبار شيوخ بارزان وبجيلي. واعدم الاتراك خلال الحرب الشيخ عبدالسلام البارزاني، فاصبح اخوه الشيخ احمد رئيسا لهذه العائلة. ويعرف شيوخ البجيلي بثرائهم. وهناك ايضا كثير من الشيوخ المتنفذين في شمزينان و هورامان، المنطقة المجهولة تماما والتي يصعب الوصول اليها.

من هذا السرد المختصر يستخلص القارئ بأن تأكيدنا كبير على الدور القومي الذي لعبه الشيوخ ضد الاتراك المتشككين والذين لم يتوقفوا عن القمع، وهذا بدوره لم يكن الا ليثير المشاعر الكردية. ومما يؤسف له، ان قائد جيش القفقاس خلال الحرب، لم يعرف السياسة

الكردية المتبعة وافتقارها الى التنظيم بوجه خاص على الجبهات، والا لربما كان من الممكن الاسفادة من هذا العداء في العلاقات التركية-الكردية.

حول الجانب الديني، سبق وان قلنا بان الشيوخ هم رؤساء الطرق الصوفية. هذه الطرق تتنوع في أدائها وخصوصياتها. واكثرها شيوعا في كردستان هي النقشبندية او سلسلة الذهب[36]، وهي قديمة جدا، اسست من قبل بيرخواجة محمد بهاءالدين البخاري[37]. والطريقة القادرية (ومؤسسها عبدالقادر الكيلاني[38]، شيخ كردي مقدس، مقبرته

---

[36] سلسلة الذهب هي السلسلة التي يوصل بها الشيوخ النقشبنديون سلسلتهم الروحية الى الرسول عن طريق الامام علي. ولهم سلسلة اخرى اهم، تلك التي تمر بابي بكر الصديق وتسمى البكرية او الصديقية. لهذا ليست سلسلة الذهب اسما للطريقة، كما اورده المؤلف، بل اسم احدى سلسلتيها. (هـ. م.)

[37] محمد بهاءالدين نقشبند (1318-1389) صوفي ولد وعاش في مناطق بخاري وسمرقند. نسبت اليه هذه الطريقة، في حين يعود فضل كبير في تشييدها الى عبدالخالق غجدواني (؟-1220) الذي وضع الاسس الثمانية للطريقة الخواجكانية، والتي أخذها نقشبند واضاف اليها ثلاثة اسس اخرى، اضافة الى لقبه فاصبحت ما نعرفه اليوم بالطريقة النقشبندية. وكان آخر شيوخ هذه الطريقة هو مولانا خالد نقشبندي الكردي (1779-1827) حيث استطاع نشرها في اقطار اسلامية عديدة تابعة للنفوذ العثماني. (هـ. م.)

[38] عبدالقادر الكيلاني (1078-1166) انتشرت طريقته في كردستان في اواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر للميلاد ولقيت شعبية واسعة لدى

في بغداد). ومع انها كانت الاولى في انتشارها بين الأكراد فان اتباعها في الوقت الحاضر اقل من الاولى.

اننا لا نستطيع الاسهاب في الحديث عن نظرية الدروشة ولكن بملاحظة عابرة نقول، ان في هذه المحافل الاسلامية السرية للطرق مراتب مختلفة من التدريب والانتماء، الدراويش ينتقلون من مقام الى آخر، تحت إشراف المرشد (الذي يرشد الى طريق الحق). وغايتهم هي تطهير الاخلاق والاستغراق الفكري في الذات الالهية في لحظات الوجد. ومن أجل الوصول الى هذا، عمدوا الى الذكر والتلقين اللذين يواكبان بعض الحركات. والدراويش ويلتجئون الى المحلات المنعزلة للتدريب الصوفي- الديني، وفي بيوت الصلاة، التكايا[39]، المتواجدة عادة في بيوت الشيوخ. ولكل شيخ ممثلوه عند جميع العشائر المهمة تقريبا. وعن طريقهم يغطون جميع كردستان بشبكة غير مرئية من قبل الاجنبي يسمح للشيوخ بان يحركوا خططهم في كل لحظة.

الطبقات الفقيرة من الشعب الكردي، وربما هذه هي اكبر الطرق الصوفية انتشارا في العالم الاسلامي و خارجه، حيث ينتشر اتباعها حتى في الصين والهند. و تعتبر مقبرته واحدة من المزارات المشهورة التي يؤمها القادريون من مناطق بعيدة جدا لقضاء اسابيع بل شهور في كتف الراقد فيها. اما اصوله الكردية فان المسألة لازالت موضع شك حتى الأن. (هـ. م.)

[39] يستعمل اسم التكية في كردستان للتكايا القادرية. أما النقشبدية فانها تستعمل اسم خانقاه لتسمية مراكزها الدينية. (هـ. م.)

يجب علينا أن نبين الاساسي في كل هذا. ان دعاية الدراويش الذين يفكرون باعادة الايمان الاسلامي النقي وسلطة الخليفة يدخل بوضوح ضمن الجامعة الاسلامية. وان الشيوخ هم اعداء متحمسين لكل نفوذ اجنبي. انهم يُبْقون على دراويشهم بنفس المستوى للحفاظ على مصالحهم الدينية وأهدافهم الشخصية وسلطتهم التي ستنتهي ما أن تنضم كردستان الى العالم المتحضر[40]. أيا كان الامر، يجب النظر الى أن نقطة انطلاق القضية الكردية تبدو في أهمية الشيوخ والتي يجب أن يحسب لها الحساب، العداء معهم والتأييد لهم، عدد مريديهم، والخ من الامور المتعلقة بذلك. فلنتذكر، في هذه الحالة، اننا لا نقوم الا بكشف النقاب عن القليل مما تبقي عليه خفايا الاسلام في العالم أجمع. ان كان الشيخ شامل في القفقاس، ومريدوه العنيدين[41]، والذي وقف فيما

---

[40] ما يقصده باسيل نيكيتين هنا هو أن الشيوخ يعملون على ابقاء دراويشهم بنفس المستوى الفكري والثقافي كي لا يحاولوا البحث عن الاستقلال الفكري او الروحي وربما التمرد على سلطة الشيخ، كما حدث في تاريخ الطريقتين مرات عديدة في كردستان. (هـ. م.)

[41] كان الشيخ شامل الداغستاني (1797-1871) واحدا من المقاومين الاشداء للاحتلال الروس للمناطق الاسلامية في آسيا الوسطى منذ عام 1834 وحتى عام 1859. كان في صغره مريضا الا انه اصبح في شبابه قويا عرف بشجاعته وطلبه للعلم والمعرفة خاصة في مجال العلوم الاسلامية واللغة العربية. دخل عالم التصوف عن طريق احد اقربائه واصبح من تابعي النقشبندية-الخالدية التي كانت آنذاك منتشرة في داغستان. في عام 1829 اصبح الامام الاول في داغستان. وغدا

مـضى ضـد الـسيطرة الروسـية. أو الـشيوخ الـسنوسيين و المـرابطين[42]

مريدوه من اشرس المدافعين عن البلاد ضد الروس واعلنوا الجهاد ضدهم. الا ان موقف الشيخ شامل لايزال غير واضح ومرد نقاشات طويلة حولة تبنيه الجهاد ام لا. في عام 1859 اجبر على الاستسلام وارسل الى سان بطرسبورك، عاصمة روسيا آنذاك، حيث التقى القيصر الذي ابعده الى منطقة قريبة من موسكو ووفر له عيشا رغيدا حتى عام 1869 اذ سمح له بزيارة مكة واداء الحج. فتوفي هناك في عام 1871 ودفن بمقبرة جنة الباقي. اصبح اثنان من ابنائه ضباطا في الجيش الروسي واثنان آخران ضباطا في الجيش العثماني. (هـ. م.)

[42] المرابطون ينتمون الى مذهب ديني حكم رجاله المغرب والاندلس خلال اعوام (1053-1147). واعتمد المذهب على صرامة التطبيق الديني والالتجاء الى الاماكن البعيدة عن السكنى لممارسة العبادة. وانتشر المذهب في عدد من البلدان الافريقية منها غانا والسنغال. وقد وقف الغزالي ضد تزمتهم في العبادة مبينا زيفه، هذا التزمت الذي كان احد اسباب سقوط حكمهم. والسنوسية طريقة صوفية اسمها محمد بن على السنوسي الادريسي (1787-1859) فانتشرت في ليبيا في منطقة بجغوب بولاية برقة بشكل خاص حيث مقرها الرئيسي ومرقد مؤسسها. ووصلت الى المغرب الاقصى والهند. كانت الطريقة تتبنى الاجتهاد في الفقه والتشريع. وقف اتباع الطريقة ضد الاحتلال الايطالي والفرنسي. ظهر من بين العائلة المؤسسة زعماء سياسيون وادباء منهم محمد ادريس السنوسي ملك ليبيا من عام 1951 وحتى عام 1869 حيث اطاح به معمر القذافي. وقف السنوسي ضد الفاشيين الايطاليين حين وصل موسوليني الى السلطة فترك بلاده وعاش في مصر مثلما عاش فيها بعد وصول القذافي الى السلطة. يقصد المؤلف هنا تأثير المزارات المرابطية التاريخية على عقلية الناس، لا المرابطية كحركة سياسية في القرن التاسع

وطرق أخرى في افريقيا الشمالية، أو أخيرا واحد من شيوخنا الأكراد. فنحن دائما في مواجهة نفس القوة التي تزداد بسبب سريتها وكونها غير معروفة في أغلب الاحيان. فبكلمة من الشيخ تتحرك العشائر التي تعترف به الى حمل السلاح، كما رأيناه خلال الحرب العالمية الثانية متمثلة في عشائر جنوب بحيرة اورمية والتي سارت حتى ضد ارادة رؤسائها، اذ حين يطلب الشيخ ذلك.

ولو أن الشيوخ استطاعوا، كما بينا ذلك، أن يحفظوا كل نفوذهم، فالمسألة ليست كذلك بالنسبة لرؤساء العشائر. ان حقوقهم الموروثة في السيطرة تراجعت كثيرا امام السلطات العثمانية التي تمكنت بعد جهد كبير من فرض ارادتها على هذا الشعب المقاوم في حدود منتصف القرن التاسع عشر وفرض موظفيها في كردستان، ما عدا بعض المناطق النائية من كردستان الوسطى، مثل شمدينان أو اورمار، ما بين اورمية والموصل. كان هناك، قبل هذه الفترة، امراء أكراد مستقلين في الواقع أو انهم كانوا يعترفون بصورة سطحية بالعلاقة مع سيادة السلطان، كأمير بتليس، "السرشبكين"، الذين كان لهم جيش يتكون من 20000 الى 25000 رجل، العائلة الحاكمة لولاة أردلان مع عاصمتها وبلاطها سنه في بلاد فارس، بكوات عشيرة بابان الذين بنوا مدينة السليمانية، الخ. ان قائمة جميع الانتفاضات الكردية التي قام بها

عشر والعشرين كما كان الحال بالنسبة للسنوسية. (هـ. م.)

هذا الشعب ضد السيطرة التركية سوف تكون طويلة وذات طابع دموي. يمكن أن تصبح موضوع دراسة تاريخية مستقلة.

الى جانب الرؤساء الذي توارثوا السلطة نلاحظ بأن عشيرة هكاري، على سبيل المثال، كانت تطبق قاعدة الانتخاب. وكان من حق مجلس المشايخ ان يستدعي الخانَ اذا ما قام بعمل غير لائق بوظيفته. فكان يوضع امامه بعد المناقشة زوج من الاحذية ويطلب منه أن يضعها ويخرج من الاجتماع. هكذا يتنازل عن حقوقه لصالح مرشح اجدى منه.

مع أن النظام الاقطاعي يبدو مهدما من قبل العثمانيين، الا ان رواسبه لا زالت باقية ونجده راسخا وبعمق في الفكر القومي. انه باق لدى كل العوائل القديمة التي تأخذ اهميتها من السلسلة الوراثية الموثقة. فلا شيء يمكن ان يسعد رئيسا كرديا أكثر من الحديث عن اجداده. قد تعرف انت عددا منهم. فيضيف هو ايضا عددا آخر من الاجيال ويتحدث لك عن بطولاتهم ضد الاعداد الروم (الاتراك) او العجم (الفرس). لكي يصبح الانسان منطلقا في الاشياء الكردية لن نبالغ اذا نصحناه أن يكون على علم بهذه السلسلات.

دعنا من الجانب العملي الذي بيناه الآن، فهذه هي الوسيلة الاضمن لمعرفة التاريخ الكردي غير المطبوع والذي نحصل عليه مختصرا في دراسة هذه السلسلات من عشيرة الى أخرى. لكي نكمل هذه النقطة سوف نضيف باختصار ان النَبالة الكردية تتكون من خمس

طبقات وهي: 1. الملا-زادة، اي ذرية الملالي المعروفين بعلمهم وبحياتهم النموذجية. والملالي الذين لا يملكون هذه الصفات يقال لهم من الناحية الدينية "انصاف الملالي"؛ 2. الشيخ-زادة، ذرية الشيوخ الذين تحدثنا عنهم؛ 3. بك-زادة، أي العوائل الكبرى النبيلة من نوع امراء بوتان وراوندوز وسردار مكري (بابا ميري)، وباشاوات بابان في السليمانية. عبد الرزاق بك الذي اراد في السابق ان يصبح اميرا على كردستان المستقلة كان من عائلة بوتان. وهذا من احسن النبلاء؛ 4. الاغا-زادة، رؤساء العشائر الاقل اهمية؛ 5. واخيرا الزاوية-دار، اي الشخصيات المقدسة[43].

ولكي ننهي ما يتعلق بالنظام الاقطاعي عند الأكراد، علينا أن نقول شيئا حول سلطة الرؤساء داخل العشيرة وقوانينهم. في الحقيقة لم يبق منها الكثير، ولكن لنقل بانه من بين اقسى العقوبات نجد نهب اموال المتهم والتي تطبق مثلا في حالة اختطاف شابة او امرأة متزوجة دون ارادتها. في حين يتم حرق البيت او قطع اشجار الحديقة كعقوبة للجرائم الاخرى. ولكن الذي يخافه الجميع هو الطرد من العشيرة. فمن الطبيعي اذن لهؤلاء الرجال الذين يبقون اقوياء ما داموا ينتمون الى الجماعة فان الطرد يعني فَقْد كل الحقوق. فالى اي حد يتعلق الكردي

---

[43] ما يقصده باسيل نيكيتين من هذه الطبقة هو تلك العوائل التي تملك زوايا (تكية او خانقاه) . وتأتي مكانتهم من ان احد اجداددهم كان من الشخصيات التي اصبحت مقدسة في نظر الناس. (هـ. م.)

بعشيرته، نجد ذلك في مثل هؤلاء الأكراد الذين اسروا من قبل الاتراك بعد تمرد وأرسلوا الى طرابلس في افريقيا. فاستطاعوا أن ينجوا بانفسهم هناك ويعودوا الى جبالهم على حدود بلاد فارس. ثمة عقوبات اقل قساوة للجنايات الاقل اهمية؛ يعاقب مثلا بدفع 10 الى 100 ليرة تركية من يختطف شابة بموافقتها؛ ومن يسرق حيوانا عليه ان يعيد ما يعادله الى صاحبه واربع قرشات الى رئيس العشيرة؛ ونفس الشيء بالنسببة للدواجن، مع فارق ان الرئيس لا يقبض الا على قطعتين، اي ان الحساب يتم بقدر ارجل الحيوان.

ان جريمة القتل تعاقب حسب قانون الثأر (توله). فابوي المقتول يملكون حق الثأر على القاتل الذي يطرد من العشيرة لمدة خمس سنوات أو أكثر. واذا قتله اصحاب الحق خلال هذه السنوات فان القضية تنتهي والا فان القاتل يستطيع أن يعود الى العشيرة بعد قضاء هذه الفترة بعد ان يصوت الشيوخ على ذلك ويوافق عليه الرئيس، ولكن حق الثأر يبقى قائما. ويمكن الاتفاق على ثمن الدم: دفع هذا الثمن لا يصل ابدا الى ما حددته الشريعة، اي 100 بعير. وهذا ما يضع حدا لاراقة الدماء. ذلك لان من المعتقد ان دم المقتول يجري الى ان يتم ثأره. ولكن هذا الاتفاق بين الجانبين لا يحظى برضاء الأكراد الذين يحبون اكثر في هذه الحالة ضربة الخنجر او طلقة البندقية.

وفيما يتعلق بالخيانة الزوجية فلا يمكن معاقبتها الا بقتل الجاني؛ ولكي نعطي فكرة حول العادات نذكر بأن البغاء ليس معروفا

عند الأكراد. ولكي يمكن تعريفه يضطرون الى استعمال كلمات تركية او فارسية.

اوردنا كل هذا كي نشرح بشكل مقتضب الحياة العامة عند الأكراد. فلنلقي الآن نظرة على الحياة العائلية التي تقربنا اكثر من هذا الشعب بمعناه الأدق. انه لمن السزاجة القول بأن الأكراد لا يمثلهم الا الشيوخ ورؤساء العشائر وجيشهم المطيع الذي يمارس في الكثير من الاحيان التجاوزات على السكان البسطاء. فالشعب، كما هو الحال في كل زمان ومكان، يطمح الى ان يُترك دون مشاكل كي يكسب لقمة عيشه. ألَمْ يشرح لنا أحد اصدقائنا الأكراد بأن "الحرب هي أن أُسرَق اليوم وأسرُق بدوري غدا من شخص آخر"؟ فانطلاقا من هذا التعريف الخالي من كل مبالغة خطابية، أليس من الاحسن ان يبقى كل في بيته؟ وبالاضافة الى هذا فان العائلة عند الأكراد تقترب من مفاهيمنا أكثر منها عند الفرس والاتراك، بفضل المكانة التي تحتلها المرأة. فللكردي بيته، وله في اكثر الاحوال زوجة واحدة وزوجته تتمتع بسلطة كبيرة جدا في الحياة الداخلية للأسرة. فهي التي تقود العائلة، والخدم تحت أمرتها؛ وهي التي توزع الحصص اثناء الاكل، ولا يبدأ الاكل دون اذن منها. وفي غياب زوجها تستقبل الضيوف، وتعبر عن سعادتها في حضورهم وتتحدث بكل حرية معهم. ولا تضع الحجاب مثلما هو حال النساء عند المسلمين الآخرين. يمكننا أن نذكر بين النساء الأكراد عادلة خانم، ارملة احد الخانات، والتي تعيش في حلبجة بالقرب من

السليمانية، وتقود مسائل عشيرتها. أو نساء عشيرة حكاري اللاتي يحملن لقب الخان ويمتلكون سلطة الخان. لقد التقينا ايضا بامرأة كردية كانت تتمتع بسلطة كبيرة وكانت مطاعة جدا، أعني مريم خان، من عائلة شيوخ نهري، في منطقة شمدينان. لقد دخل عساكرنا في مفاوضات معها. كان تأثيرها واسعا جدا على اكراد منطقتها. من جانب آخر، انه لمن المسائل الرائعة في حياة الأكراد من أن الزواج يتم عن طريق الحب وان الخطيب والخطيبة يلتقيان قبل الزواج ويعرفان أحدهما الآخر قبل الزواج. في حين يتم الزواج عند المسلمين الآخرين خارج ارادة زوجَي المستقبل وعن طريق أشخاص آخرين. وماعدا هذا فان الاب في العائلة الكردية هو الرئيس ويملك كل السلطات. وهو الذي يحتل المكان الاول، ولا يستطيع أفراد العائلة الجلوس او الحديث في حظوره دون اذن منه. الابن البكر هو الذي يرث سلطة الاب ولا أعز على قلب كردي من وريثه. وهذا يفسر لماذا يستعمل الابن البكر للرئيس كرهينة في المفاوضات مع الأكراد، وتعتبر الرهينة أكثر قيمة من القسم على القرآن. فالعشيرة تستطيع أن تتجاوز كل التزاماتها اذا أُسِر رئيسُها، ذلك لأن نائبه (او كما يقولون: بذره) موجود. ولكن العشيرة لا تتجاوز التزاماتها اذا ما كان الوريث غائبا، اذ يهددها ذلك باشعال الصراعات الداخلية التي تعقب موت الرئيس.

الكردي، ان كان متحضرا او نصف متحضر، فانه مزارع ماهر في مشاغله اليومية. نستغرب حين نجول في المناطق النائية من

كردستان أن نرى كم يجهد نفسه في العمل المستمر كي يخلق في المناطق الجبلية الصعبة جزءا من الارض يمكن زراعتها لكي يحصل على خبزه. فقطعة صغيرة من الارض الزراعية يُستغل رأسا: ترمى الاحجار جانبا وتقتلع الاعشاب لحرث الارض بشكل دقيق، وتُغنى في أكثر الاحوال بالتراب الغني الذي يُجلب من بعيد في سلال تُحمل على الظهر. ان نظام الري يعود الى زمن بعيد جدا. ونجد على طول السواقي اشجار الحَوْر مزروعة بشكل مرتب كي يوطد الحوافي.

لن ننسى ابدا تلك الصورة الخلابة التي ظهرت لنا بعد ايام من المشي المتعب عبر الجبال والقمم في كردستان الوسطى، حيث وصلنا الى مجمع من القرى الصغيرة المتأنقة في واديين يحيط بهما حائط من الاحجار المسننة والصعبة. كنا نشاهد على جوانب هذه الوديان مزارع صغيرة ترتفع كالدرج وكأنها في منظرها العام مدرج مخضوضر يتقاطع فيها الذرة الصفراء بالذرة البيضاء، التبن مع بستان الفواكه. كل مسافة صغيرة يحيط بها حائط من الاحجار الكبيرة وتفرشها اشجار العنب. كانت اشجار الفواكه المزروعة هنا وهناك تحمي البيوت المبنية بقوة من الاحجار المنحوتة. كانت السواقي تغرد في مرورها بين الشجيرات. كل هذا في اورامر، هذه المنطقة الكردية غير المعروفة والمشهورة بغرابتها.

هذه الجهود التي تبين لنا الصفات الجيدة عند الأكراد تجد في بعض الحالات مكانتها. فعلى سبيل المثال يحضى التبن المزروع في شمدينان بشهرة عالية في الاسواق الايرانية. وماعدا التبن، فان الأكراد

يبيعون العفص (حيث يعود ثلثاه الى الرئيس وثلثه للمزارع)، صمغ الكثيراء، العسل، العنب والفواكه المجففة، وبشكل خاص منتجات تربية الحيوانات، الصوف، الجبن، والخ. ان الظروف الطبيعية تقف عقبة كبرى امام التطور السلمي لهذا الشعب الموهوب والمكافح بكل اعماقه. فالجبال لا تسمح لهم بممارسة الزراعة في مناطق كثيرة. ومن الجانب الآخر فان الاسواق تنقصهم، وقبل كل هذا، تنقصهم طرق المواصلات كاملة. لهذا علينا ان لا نندهش بان الكردي يكون اكثر ميلا الى بندقيته وحصانه وان حياة كهذه تطلب منه الخدعة وان يلتمس العيش بكل الوسائل وان يكون ماكرا، وهذا ما هو صحيح بالنسبة للعشائر القاطنة على الحدود التي تعيش تقريبا حياة مزدوجة، فهم مجبرون ان يغيروا سكنهم كثيرا تجنبا لمطاردة الحكومات.

تنقسم العشائر الكردية الى عشائر حضرية، عشائر نصف حضرية وعشائر بدوية. العشائر النصف حضرية هي تلك العشائر التي تملك بيوتا ثابتة للشتاء وللصيف. اما العشائر البدوية فانها تعيش دائما تحت الخيم وتقضي الشتاء في السهول (كرميان– germian) وحين يبدأ فصل الحرارة فانها تنتقل مع حيواناتها الى مناطق مرتفعة بحثا عن الاعشاب الخضراء. منذ قرون لكل عشيرة خط سيره الثابت في الذهاب والاياب ولا تحاذي عنه ابدا. والمراعي محددة بشكل دقيق. والوحدة التي تستخدم قياسا لهذا التحديد تسمى "اوبة". فحين تصل الاوبة، والتي تتكون من تجمع عوائل قد تختلف في عددها، الا ان عدد

مواشيها لا تقل عن 500 رأس. حين تصل الى المراعي، يأتي الاختيار ومعه هدايا الى الرئيس الذي يدله على مكانهم. وكل 200 رأس من المواشي يحرسها راع واحد والذي يتقاضى ثلاثة فرنكات عن كل رأس (أو فرنك ونصف بالسعر المعروف) مع رغيف خبز من كل خيمة خلال فترة الرعي. ويتلقى مساعدو الراعي وعددهم عشرة اشخاص يتقاضون جميعهم حملا واحدا في العام. كل ظروف الرعي (خروج المواشي، عودة المواشي، سقيها، الخ) كل ذلك منظم كعقرب الساعة.

هناك الكثير مما يمكن قوله حول ما يجب على الأكراد دفعه الى الرؤساء، حول العادات التي تواكب الولادة، حول الزواج والتعزية وكذلك حول الاساطير الكردية، ولكن لنترك هذه التفاصيل جانبا، سوف ننهي مقالتنا ببعض الملاحظات المختصرة التي تفرض نفسها.

فقبل كل شيء يمكننا أن نؤكد بانه ليست هناك قضية كردية واحدة، كما ليس هناك شعب موحد يحركه شعور واحد ويوحده نفس المصالح الاقتصادية والاجتماعية. ثمة عدد من القضايا الكردية في الوقت الحاضر، في ارمينيا كما في بلاد مابين النهرين وايران، ونحن مجبرون في الوقت الحاضر على ان نحللها كل على حدة. اننا نعتقد باننا بيننا بان الشهرة التعيسة التي يعرف به هذا الشعب يمكن شرحه بالظروف المؤسفة للحياة. انه ما نراه، فقد تواجد بين طبيعة قاسية وشديدة وكان تحت سيطرة حكومة لم تعمل شيئا ابدا كي تظهر الصفات الجيدة لهؤلاء الآريين ذوي الدم النقي، وتركتهم في الجهالة ولم

تستغل الا غرائزهم السيئة. فلو عومل الكردي بشكل آخر، ولو امكن تسهيل تربيته، ولو قصرت المسافة بين جباله والمراكز المدنية ببناء طرق المواصلات، فاننا على يقين بان هذا العرق الجميل يستطيع ان يشارك وبنجاح في محاسن الحضارة. ولكن كي يمكن اكتساب الكردي، يجب ان ندرسه بشكل جيد اولا، ان نحذر من أن نثير كبرياءه وحسه بالكرامة والا نكون متعالين معه.

مدارس جيدة وطرق جيدة، ادارة مسؤولة ومتنورة، هذه هي وسائل اكثر ضمانا من الحرب التي لا يمكنها الا ان تثيرهم وتعزلهم اكثر فاكثر.

كركوك في الانسكلوبيديا الاسلامية[44]

ج. هـ. كرامرز وتوما بوا[45]

---

[44] استرعى تاريخ مدينة كركوك، قديما و حديثا، انتباه الكثير من الدارسين والمؤرخين المعنيين بشؤن الاكراد وبلاد ما بين النهرين. فالحموي من المؤرخين العرب، مينووسكي و نيكيتين وادموندز من المستشرقين، وتوفيق وهبي من البحاثة الاكراد، وعدد لا يحصى من الباحثين المعاصرين درسوا ماضي و حاضر هذه المدينة، واكدوا على اهميتها، التي تكمن بشكل عام، تاريخيا في موقعها الحيوي من الخط التجاري بين اسطنبول وبغداد، وحديثا في اكتشاف واحد من اغنى حقول البترول على كوكبنا فيها، قبل اكتشاف حقول اخرى أغنى منها. لذا ليس من الغرابة ان تخص باكبر حجم من الصفحات في الانسكلوبيديا الاسلامية من بين جميع مدن كردستان، والتي يرى القارىء في الصفحات التالية ترجمتها الكاملة. هذة الدراسة، كتبت اولا، من قبل كرامرز في الطبعة الاولى من الانسكلوبيديا الاسلامية، ثم اضاف اليها توما بوا، في الطبعة الثانية، ملاحظات اخرى. انتهى الاخير من تهيئتها في عام 1974. هذا الامر، اضافة الى بعض المسائل الاخرى الواردة في النص، اقتضى اضافة بعض الهوامش من قبلنا. غير اننا تجنبنا اثقال قرائتها بهوامش طويلة مخافة الخروج عن الهدف الاساسي من الترجمة: التعريف بتاريخ المدينة وحقيقة انتمائها، او، بتعبير اخر البحث عن هويتها التي ارادوا ويراد حتى الآن سلبها.

[45] ج. هـ. كرامرز هو مستشرق بريطاني كتب العديد من الدراسات حول الشرق القديم ومساهمته هذه تعد من دراساته النادرة حول كردستان. كتب هذه الدراسة في الطبعة الاولى من الموسوعة الاسلامية التي تصدر في هولندا. ثم اضاف توما بوا

يُعد كركوك من اكبرمدن بلاد ما بين النهرين وتقع على خط 25 درجة/42 درجة شرقا و 25 درجة/35 درجة شمالا. يحدها من الشمال الغربي الزاب الصغير، من الجنوب الغربي جبل الحمرين، من الجنوب الشرقي ديالى[46]، وتقع جبال زاكروس على حدودها الشمالية الشرقية. يرى البعض (س.ج.جار[47] وسدني سميث على سبيل المثال) بان مدينة ارفا القديمة كانت تحتل موقع كركوك الحالي.

شارك كركوك في ثورة احد ابناء شلمنصر الثاني (858-824 ق. م.) ضد ابيه العجوز. وتمرد من جديد خلال حكم اشور دان الثالث (771-754 ق. م.)، وشاهدت عبور جيوش نبوخذنصر المظفرة في عام 616 ق. م. وذلك قبل ان يحتلها ماديو سياخر في اواخر عام 615[48]. تعرضت المدينة والاراضي المحيطة بها، منذ عهد الامبراطورية البابلية قديما والامبراطورية الاشورية، مرات عديدة، الى

اليها العديد من الملاحظات والمكتشفات منذ الطبعة الاولي. توما بوا كان واحدا من كبار المتخصصين حول الاكراد. كتب العديد من الكتب والمقالات حولهم. وتعود الدراسة الطويلة حول الاكراد في الموسوعة الاسلامية اليه. كان توما بوا قسا دومنيكيا عاش بين 1900 و 1975.

[46] المقصود هو نهر ديالى او سيروان كما يسميه الاكراد.

[47] C. J. gaad, Rev. d’Assyr, et d’Archeol, Orient, 1926

[48] G. Roux, *Ancient Iraq,* Londres, 1964, p. (العراق القديم) 247, 251, 312, 313.

هجمات الشعوب الجبلية الساكنة في شمالها الغربي. وخلال عهد الساسانيين (226-651 ق. م.) كان يطلق اسم "كرمكان" Garmakan على المنطقة. وجاء في المصادر السريانية اسم "بيت كرماي" Beth Garmai. وتذكر هذه المصادر ايضا بان مدينة كركوك ذاتها كانت تسمى "كرخا بيت سلوخ" karkha de Beth Selokh[49]. جاءها هذا الاسم من الملك ملوسوس الاول نيكاتور (حوالي 255-280 ق .م.) والذي بنى برجا في القلعة. وخلال حكم الساسانيين اصبحت المدينة مركزا معروفا للنساطرة. وكان اسقف بيت كرماي يسكن فيها. وقد عانى المسيحيون فيها الكثير من الاضطهاد تحت سابور الثاني (310-379)[50] وبشكل خاص في عام 445، اثناء حكم يزدجر الثاني، الذي قتل عدة الاف منهم. وتحسن وضعهم فيما بعد حتى اصبح واحد من المسيحين، يازدين، وزيرا للمالية في ضل حكم شوسروس الثاني (590-628)، ووصلت شهرته حدا اخذ الناس يطلقون اسم "كارخ يازدين" Karkh Yazdin [51] على مسقط راسه. وما تسميه المصادر السريانية "بيت كارماي" يسميه المؤرخون العرب

---

[49] G. Hoffman, Aussüge aus syrischen Akten persischer Märtyrer, dans *Abh, f£ur die Kurde des Morgenlandes,* VII/3 (1880), 267.

[50] J. M. Fiey, *Assyrie chrétienne*, III, Beyrouth, 1966. (*أشور المسيحية*).

[51] *المصدر السابق*، ص 23-28.

"باجرما". يتحدث ياقوت حول مدينة تسمى كرخينا التي يرى فيها هوفمان[52] مدينة كركوك. وهو كما يبدو، على حق. فمازال اهل شقلاوة وعين كاوة، حتى يومنا هذا، يقولون، حين يسافرون الى كركوك، بانهم ذاهبون الى كرخينا[53].

في القرنين السادس والسابع، كان كركوك تابعا للاراضي الخاضعة لسلطة اسرة البكتكين التي كانت تقيم في اربيل. وبعد وفاة مظفر الدين كوكبوري في 1232/629 عادت املاك هذه الاسرة الى الخليفة العباسي. واجتاح المغول اربيل بعد ذلك بوقت قصير. وجاء ذكر كركوك لاول مرة في تاريخ تيمور لشرف الدين علي يزيدي[54]. ثم وقع تحت نفوذ الاققوينلو، وبعدها جاء فتح الشاه اسماعيل لبلاد ما بين النهرين خلال السنوات الاولى من القرن السادس عشر. وحينما وقعت بلاد مابين النهرين والعراق في ايدي السلطانين العثمانين سليم الاول و سليمان الاول (حيث تم اول صلح تركي- فارسي في اماسية، في 29 مايس 1555) استعادت كركوك دورها كحصن مهم في مواجهة العدو الشرقي. وبعد سقوط بغداد في 1623/1032 في ايدي الفرس وقع كركوك ايضا تحت نفوذهم. الا ان خسرو باشا اعاد فتحها في سنة

---

[52] ياقوت الحموي، معجم *البلدان*، الجزء الرابع، ص 276.

[53] J. M. Fiey *المصدر السابق*، ص 44.

[54] شرف الدين علي يزدي، *زفرنامة*، في ترجمتها الفرنسية من قبل بيتي دو لا كرواء، باريس، 1723، الجزء الثاني، ص 259

1630. ومر بها مراد الرابع اثناء سيره لاعادة فتح بغداد. كان السادة الحقيقيون لهذه المنطقة هم رؤساء الاكراد المحليين لمنطقة اردلان[55]. الا ان سلطة العثمانية استطاعت فيما بعد بوقت قصير فرض سيطرتها على هذه المدينة بالاعتماد على نشاط باشوات ايالة شارزور. كانت هذه الايالة تتكون من 32 سنجقا. واصبحت كركوك التي كانت واحدة من هذه الآيالات مقر اقامة باشا شهرزور، بعد ان دمر الشاه عباس (1571-1642) القصر المسمى باسم هذه المدينة. في عام 1732 حاصر نادر شاه، ولم يكن بعد قد تسلم العرش، عبثا مدينة كركوك. في السنة التالية حدثت معركة كبيرة بالقرب من المدينة هزم فيها الاتراك بشكل مدمر وكانوا تحت امرة الوزير توبال باشا الذى لقى حتفه اثناء المعركة. وفي عام 1743 وقع كركوك مرة اخرى في ايدي الفرس، الى انها عادت الى الاتراك بعد صلح عام 1746. بقيت المدينة ضمن الامبراطورية العثمانية حتى اواخر الحرب العالمية الاولى. احتلها البريطانيون في مايس من عام 1918. ثم تركوها بعد خمسة عشر يوما ليعودوا الى احتلالها ثانية في نهاية تشرين الاول اثناء هدنة مودروس. بقيت خارج نشاطات الشيخ محمود (تشرين الثاني1918- مايس 1919). كان الهدوء يعم فيها. اصدرت فيها صحيفة باللغة التركية، وافتتحت فيها 16 مدرسة. وخلال استفتاء عام

---

[55] حاجي خليفة، *جنان نامه*، ص 445.

1921 رفضت كركوك الامير فيصل ملكا للعراق. فبدات الدعاية التركية من ذلك الوقت تنتشر في المنطقة، تدعمها عائلة نفطجي-زادة واخرون من موالي الاتراك.

في 17 مارس 1922، عين الاتراك قائمقاما في رواندوز. وفي نهاية شهر تموز ظهر الكولونيل علي شفيق الملقب "اوز دمير" اي الرجل الحديدي، الذي حقق بعض التقدم في ولاية الموصل التي طالب بها الاتراك دون نجاح في مؤتمر لوزان (20 تشرين 1922- 2 شباط 1923). تركت معاهدة لوزان (24 تموز 1923) مسالة الموصل دون حل ووضعتها تحت اشراف هيئة الامم. وارسلت هيئة الامم الى المنطقة لجنة للبحث حتى وضع مجلس هيئة الامم في اجتماعه السابع والثلاثين المنعقد في جنيف في 16 كانون الاول 1923 حلا نهائيا للقضية باعطائها جميع الاراضي الواقعة في جنوب الخط المسمى بروكسل الى العراق. منذ ذلك الحين وكركوك تقع ضمن الدولة العراقية.

ان جزءا من المدينة مبني على تلة اصطناعية عليها قلعة ارتفاعها حوالي اربعين مترا، ويقع الجزء الاخر في قاعدة التلة على ضفتي خاسه جاي (خاسه باللغة الكردية)، تتصب مياهه في آوي سبي ويتشكل بذلك العظيم الذي يصب في دجلة على بعد 30 كيلومترا في جنوب مدينة بلد. وفي الضفة اليمني من خاسه، وفي بقعة خضراء يرتفع محلة عرفة. وخمن ي. ب. سون سكان المدينة بـ15000 في

عام 1912، في حين قدرهم س. ج. ادموندز في 1922بـ 25000. اما الاحصائيات الرسمية لسنة 1965، والتي اخذت لغة الام بنظر الاعتبار، فانها تبين بان عدد سكان المدينة يبلغ 184000 شخصا من ضمنهم 71000 كردي، 55000 تركماني و 41000 عربي. ان نفوس المدينة تتجاوز حاليا 200000 شخص بلا شك. ويجب الاشارة الى ان السلطات تبذل منذ سنوات عديدة كل جهودها لتهجير الاكراد واسكان العرب محلهم[56]. ان مدينة كركوك مركز اداري تحول من لواء الى محافظة في عام 1975. وغير اسمها من كركوك الى التاميم احتفاءا بتأميم النفط الذي حدث في الاول من حزيران 1972 و بهدف تعريب المدينة[57] (التي حافظت ذلك ذل خصوصياتها). ان نفوس المحافظة تزداد بسرعة بفضل تطور صناعة النفط. فقد وصلت من 388000 في

---

[56] ازدادت سياسة تعريب محافظة كركوك منذ الستينات واخذت طابعا خاصا من عام 1970 حتى وصلت اوجها في اعوام 75، 76، 77. فقد هجرت الالاف من العوائل الكردية الى جنوب العراق او الى مناطق الكردية الاخرى. واخذت الحكومة تشن حملة واسعة السكان العرب في المدينة وانحائها. مما قامت في مركز المحافظة هو بناء حزام عربي حولها. ليست لدينا احصائيات دقيقة حول عدد الدور التي بنيت منذ 1970 لاسكان العرب. الا ان الرقم الذي قدمه كتاب ***سیاسەتی بەعەرەب کردنی کەرکووکنا*** (*سياسة تعريب كركوك*) الصادر عن عصبة كادحي كردستان سنة 1982، ص13–18، يتجاوز (30000) دار.

[57] استعمل المؤلفان هنا كلمة "dékurdiser" التي تعني "مسح الطابع الكردي" الا اننا اثرنا استعمال كلمة "التعريب" الشائعة والمعبرة عن الواقع المعاش.

عام 1957 الى 523000 في عام 1970، باكثرية كردية. ان الاكراد والعرب والتركمان الساكنين في المدينة هم مسلمون سنة، الا ان تركمان القرى ينتمون الى مذهب بدعي و باطني اسمه القزلباش. واغلبية المسيحيين كلدان (حوالي 4500 شخص)، و لهم مطران واحد و عدد كبير من الرهبان. ولدى النسطوريين اسقف يقيم في حرير. وكانت توجد في المدينة جالية يهودية صغيرة تتكون من التجار. كان واحد منهم ممثلا في البرلمان، واخر مديرا لدائرة مالية اللواء، الا ان هذه الجالية هاجرت بعد الحرب الاسرائيلية–العربية (1948). ويعتقد ان هؤلاء اليهود هم احفاد اولئك الذين جاء بهم نبوخذنصر الى بابل بعد احتلال اورشليم (386 ق. م.). كانوا يتكلمون الارامية، وكانوا يحتفلون في مسجد النبي دانيال الصغير الواقع على حافة تل كركوك، بذكرى نبي اسرائيل الذي جيء به في تلك الفترة. وكانت توجد في المدينة حتى حوالي سنة 1700 كنيسة قديمة و مسجد "اولو جامع". الا ان اقدم كنيسة في العالم هي كنيسة الشهيد مار تهمزجرد التي بناها رئيس الاساقفة في ما يقارب سنة 470 ق. م. في شرق قلعة كركوك. وكانت تسمى "الشهادة الكبرى" Grand Martnion. فجرها الاتراك اثناء انسحابهم في 1918 بما وضعوا فيها من متفجرات[58].

ان خطة تنظيم مدينة كركوك جعل منها مركزا مهما للطرق العريضة. يسكن المسيحيون كركوك منذ اقدم الازمنة، ويبدو انهم بقوا

[58] Edmonds, 267, Fiey, *Assyrie*, III, 54.

فيها منذ البدء ولم يكن ثابتا دائما. اما التركمان، فان حضورهم العابر في كركوك وضواحيها بين اغلبية كردية يعود برأي البعض الى زمن سابق على فتح المدينة من قبل السلاطين العثمانيين. يجب البحث عن ذلك في الحامية التركية التي اقامها الخليفة في المدينة منذ القرن الثالث/التاسع، او في هجرة السلجوقيين والبكتكيين والاتابكيين من اربيل[59]. ايا كان الرأي حول مجيئهم الى المنطقة فقد قدموا دعما مستمرا للامبراطورية العثمانية وثقافتها، وكانوا مصدرا خصبا لتزويدها بالموظفين[60].

تنوعت الظروف الادراية في كركوك خلال العصور. ففي القرن الثامن عشر كان كركوك مركزا لايالة شهرزور التي كانت تضم الالوية الحديثة: كركوك، اربيل وسليمانية (شكليا) ويديرها متسلم يعين من قبل بغداد. مع اصلاحات مدحت باشا والي بغداد 1869-1872 اطلق اسم شهرزور على سناجق كركوك والحق به لواءي كركوك واربيل، في حين ظل شهرزور التاريخي، السليمانية، خارج السنجاق الجديد. وشكلت ولاية الموصل في 1879 وبقيت كركوك مدينة عسكرية مهمة[61]. وكانت ولاية الموصل تتكون خلال الحكم التركي من ثلاثة سناجق او

---

59. Edmonds, 267. ادموندز يشير الى آراء اخرى.
60. *Türk Yurdu,* 1915.
61. Edmonds, 265-266.

الويـة: الموصـل وكركـوك والـسليمانية. فـي عـام 1918 فـصلت ثلاثـة اقضية في شمال الزاب الصغير عن كركوك ليتشكل منها لواء اربيل.

جاء في دستور عام 1925 للدولة عراقية الجديدة المتكونة من ثلاثة الوية عثمانية، بغداد كعاصمة، البصرة والموصل، بان كركوك يتكون من اربعة اقضية : كركوك، كفري، جمجمال وجيل. اليوم تشمل محافظـة التـاميم المـدارة مـن قبـل محفـاظ خمـسة اقـضية : كركـوك، دوزخورمـاتو، جمجمـال، حويجـة وكفـري[62] ويـدير كـل قـضاء قائمقـام. ويضم كركـوك خمـس نـواح : تـازة خورمـاتو، قرهنجيـر، التـون كـوبري، دبس، شوان، ويدير كل ناحية مدير.

توجـد فـي كركـوك محكمـة عليـا ومحكمـة استئناف وحاميـة عـسكرية ومطـار ويوجـد فيهـا اتحـاد للادبـاء التركمـان. تـشكل كركـوك مركـزا تجاريـا مهمـا و سـوقا للمنتوجـات الزراعيـة للحبـوب ولحيوانـات المناطق المحيطة بها. ويستفيد كركوك من طرق جديدة نحو بغداد عبر طـاوق و كفـري، ونحـو الموصـل عبـر التـون كـوبري واربيـل، ونحـو الـسليمانية عبـر جمجمـال بامتـدادات حتـى سـنندج وهمـدان فـي ايـران.

---

[62] تقوم الحكومة ضمن سياستها لتغير الواقع القومي والاداري لمحافظة كركوك بفصل الاقضية التي تسكنها غالبية كردية عنها بهدف تقليل نسبة الاكراد فيها. فقد الحـق قـضاء طوزخورمـاتو بمحافظـة صـلاح الـدين وكفـري بـديالى و جمجمـال بمحافظـة الـسليمانية. وكانـت ناحيـة كـلار تابعـة لقـضاء كفـري، والحقـت، بعـد ان اصبحت قضاء، بمحافظة السليمانية.

وهناك خط ضيق للسكك الحديدية تربط كركوك ببغداد جنوبا واربيل في الشمال. وتوجد في اطراف كركوك جبال غير عالية تسكنها اكثرية كردية. الا ان سهوب بلاد ما بين النهرين تبدأ من غرب المدينة، ويسكنها العرب بشكل خاص. وتنتج الاراضي المحيطة بالمدينة الكثير من الفواكه. ان منطقة كركوك غنية بالكبريت ومواد القير، وغنية جدا بحقول البترول المستثمر منذ العهود السحقية. يجب ان نشير الى ان البترول قد جذب شيئا من الاهتمام في العهد العثماني: اذ كان الجيش يستعمله[63]. صدر في عام 1639 فرمان يعطي لاتراك منطقة كركوك، نفطجي زادلر، حق التمتع باستثمار النفط. الا ان الاستثمار المنظم للحقول بداء من اذار 1925 حيث اعطيت شركة النفط التركية التي تاسست سنة 1914 امتيازا لاستثمار حقول ولايات الموصل، بغداد، بتقدير اربعة باونات من الذهب لكل طن من البترول المستخرج. وقبل نهاية عام 1925 بدأت الاعمال الجيولوجية ومد الطرق في ولاية الموصل وحفر الترع ووضع انابيب النفط واعمال البناء. وبدأ العمل خمسون بريطانيا و 2500 عراقيا. وعينت مواقع الابار في جبل حمرين، بالقرب من طوزخورماتو، القريبة من كركوك. وافتتحت عمليات

---

63 V. J. Perry, *Materiels of war in the Ottoman Empire, Studies in the Economic History on the Middle-East,* p. 220.
(ادوات الحرب في الدولة العثمانية، دراسة في التاريخ الاقتصادي للشرق الاوسط)

الحفر باحتفال في نيسان 1927 من قبل الملك فيصل الاول. وتدفق البترول، لاول مرة، في 27 تشرين الاول من عام 1927 في بابا كركر، بالقرب من كركوك. وكانت سنوات 1927 -1931 قد خصصت لتحضير منطقة كركوك للانتاج عن طريق حفر الابار، الدراسات العلمية، تهيئة الخدمات الضرورية، بناء تجهيزات الانتاج والمستودعات وورشات العمل وبناء السكن...الخ. وفي نفس الوقت الادامة في المفاوضات مع الحكومة العراقية بهدف تمديد فترة اختيار الاراضي المنصوص عليها في اتفاقية 1925 وتحولت الشركة في عام 1929 الى شركة النفط العراقية، التي استطاعت في 1931 ان تستثمر كل اراضي المناطق الشمالية الشرقية من العراق. ووعدت ببناء خط نفطي في سنة 1935 يصل الى البحر الابيض المتوسط بطاقة 3 ملايين طنا، يتفرع في حديثة، على الفرات، ليسير نحو حيفا و طرابلس. تكون حصة الحكومة فيها 400000 دولار سنويا. وفي عام 1931 ذاته، انتقلت الادارة العامة للاستثمار في شركة النفط العراقية من طوزخورماتو الى كركوك، واستقرت الادارة العامة للخطوط النفطية في حيفا. وبدأ تصدير نفط كركوك الخام منذ نهاية عام 1934. ومنذ 1935 وضع الانتاج السنوي البالغ 4 ملايين طنا العراق في المرتبة الثامنة من بين الدول المنتجة للبترول. واقيم في كركوك سنة 1935 حفل افتتاح الانابيب المزدوجة، بسعة 12 انجا، الممتدة نحو البحر الابيض المتوسط. وادت الحرب الاسرائيلية-العربية في 1948 الى

غلق خط حيفا، وادي هذا الى ضياع ما يقارب من 7 ملايين طنا من النفط. الا انه اضيف في 1949 الى خط طرابلس انبوبا اخرا بسعة 16 انجا اوصل معدل الانتاج والتصدير الى ثلاث اضعاف. وفي عام 1952 انجز بناء انبوب اخر بسعة 30 انجا، يصل من كركوك الى بانياس في سوريا. منذ ذلك الحين ازدهرت الاسواق العالمية للنفط العراقي حتى وصلت الى 14 مليون طنا سنويا. وتم في 3 شباط 1952 التوقيع على اتفاق جديد بين الحكومة العراقية وشركة النفط العراقية حول توزيع الموظفين والانتاج والعائدات. اشترط بموجب هذا الاتفاق ان يكون الحد الادنى من الانتاج، منذ عام 1953، 22 مليون طنا سنويا وان تصل العائدات الى 30 مليون دولار في 1952 ثم 60 مليون دولار في 1955. وعلى هذا تكون حصة كل جانب 50% من فوائد استثمار النفط.

لم يكن في نية ثورة 14 تموز 1958 تغيير الاتفاقيات بين الحكومة والشركات البترولية. كان الهدف هو الحصول على صادرات بـ 100 مليون دولار من العائدات بطاقة 70 مليون طنا سنويا. وهذا ما تم الوصول اليه في اربعة اعوام. ولم يزل هناك عدد من المشاكل المتعلقة بالتفسير. بداعت المفاوضات وانتهت اخيرا باصدار قانون رقم 80 في 11 كانون الاول 1961 الذي استعاد 99% من الاراضي التي كانت الشركات تملك حق التنقيب فيها. ولم يترك قانون شركة النفط العراقية الا 22 نقطة، منها 12 في كركوك، اي مساحة 47875 كم

مربع و 6 في بي كسان أي 182 ونصف كم مربعاو 4 في جمبور، أي 86 ونصف كم مربع [64]. حدثت تغييرات جديدة بين مايس 1964 وحزيران 1965 ولكن ضمن الشركة الوطنية للنفط العراقية التي تاسست حديثا (30تشرين الثاني 1962). وتم فيما بعد اصدار قوانين جديدة ايضا وهو قانون رقم 97 (6 آب1967) والذي منع اعطاء اي امتيازات جديدة للشركات الاجنبية وقانون رقم 123 (كانون الاول 1967) والذي منح شركة النفط الوطنية العراقية حق استثمار القطاعات الباقية، وهذا ما وضع نهاية للسيطرة على الانتاج النفطي للشركة الاجنبية شركة النفط العراقية. وفي 14 حزيران 1972 تم تأميم شركة النفط العراقية وهكذا اصبح العراق وحده سيد ثرواته النفطية. ان الانتاج السنوي للنفط العراقي الخام يزداد بشكل مستمر : فمن 47.5مليون طنا في عام 1960 وصل الى اكثر من 110 ملايين في سنة 1975، انتج 60 مليون طنا منه في منطقة كركوك. ان احتياطات العراق من النفط الخام قدرت في عام 1973 باربعة مليارات و 143مليونا طنا.

رغم ان الصناعة البترولية وملحقاتها حسنت الوضع الاجتماعي للعمال الذين يعملون فيها، حيث ان مستوى معيشتهم ارتفع من مستوى معيشة العمال الآخرين للبلاد، فان هذا لم ينهي الحركات ذات المطالب الاجتماعية. فقد حدث عدد من الاضرابات المهمة بين

---

[64] Vernier, 435.

عمال النفط في كركوك. واكبر هذه الاضرابات ذلك الذي حدث في 1937، والذي تزامن مع اضراب عمال سدة الكوت، اضراب عمال الحفر، اضراب السكك الحديدية، اضراب حمالي ميناء البصرة واضراب عمال نسيج النجف، كل هذه الاضرابات اثبتت وعي العمال واولدت سلاحا سياسيا جديدا[65]. وحدث في عام 1947 اضراب في شركة النفط العراقية دبره سياسيون شيوعيون وقع فيه عدد من الضحايا[66].

حدثت اضرابات اخرى ذات طابع سياسي. فمجرد الاعلان عن معاهدة بورسموث (10 كانون الثاني 1948) ادى الى اندلاع عام دام ثلاث ايام. في كركوك هوجمت القنصلية البريطانية. واكثر هذه الاحداث تراجيدية هو ما اطلق علية "تطهير كركوك" حيث قام شوعيون تساندهم جماعات كردية بمناسبة الذكرى الاولى لاعلان الجمهورية (14تموز 1959) بمذبحة بين تركمان المدينة الذين اعتبروا من اعداء الشيوعية، قتل فيها 120 شخصا وجرح حوالي مائة. ولم يفسر اشتراك الاكراد فيها بالعداوات القومية (اكراد/ تركمان)، وانما بالمنافسات الاجتماعية: فان التركمان المتطورين اكثر، اجتماعيا، وثقافيا، يحتلون بالضرورة وظائف ارفع في شركة النفط العراقية، في حين كان الاكراد يشغلون وظائف ثانوية[67].

---

[65] Longrigg, *Irak*, p. 252.

[66] *نفس المصدر*، ص 338.

[67] M. Khadduri, *Republican Iraq*, p. 125.

ويجب ان لا ننسى بان احدى العقبات امام الحل النهائي للقضية للكردية في العراق بالذات هي مطاليب الاكراد المتعلقة بارض كركوك وعائداتها، اذ يريدون ضمها الى ارض كردستان ذي الحكم الذاتي. وهذه المطاليب ترفضها الحكومة العراقية رفضا باتا. وكان من المحتمل ان يحل استفتاء تشرين الاول 1970 هذه النقطة، الا انه اجل الى امد غير محدد[68]، وكان هذا واحدا من اسباب اندلاع القتال في وقت شرع فيه بتطبيق المعاهدة الكردية – العراقية في 11 اذار 1970. ان قانون 11 اذار 1974 يطبق الحكم الذاتي لمنطقة كردستان حسب احصائيات عام 1957. تمت هذه الاحصائيات في العهد الملكي، حيث كان الاكراد يخافون الاعلان عن انفسهم كاكراد. فهي لاتعطي الاغلبية للاكراد في مدينة كركوك. وهكذا لم تعد المدينة ضمن منطقة الحكم الذاتي.

من بين شخصيات كركوك هناك شاعر كردي مشهور، الشيخ رضا الطالباني (حوالي 1843-1910). فمع ميوله نوعا ما نحو اللاأدرية، رغم كونه مؤمنا متعصبا، هذه الشخصية الهجائية، ذات موهبة في الارتجال والقريحة الفاحشة. اشعاره بالكردية والتركية، وبالفارسية والعربية. طبع ديوانه في بغداد في 1935 و 1946. انه يبقى من اشهر الشعراء الشعبيين في كردستان العراق[69] (26).

---

[68] E. O'Ballance, p. 161-162.

[69] (هجّاء كردي: الشيخ رضا الطالباني) Edmonds, 'A Kurdish

كركوك في كتب الرحلات الفرنسية[70]

هلكوت حكيم

لم تحض المناطق الكردية باهتمام الفرنسيين بنفس الدرجة التي كرس لها الإنكليز من اهتمام وكتبوا عنها من كتب. ولو نظرنا إلى فهرسة الكتب والمقالات المطبوعة خلال القرنين الثامن والتاسع عشر، أي خلال فترة ازدهار الرحلات الغربية إلى الشرق، لتبين لنا هذا الاتجاه بوضوح. فاعتمادا على إحدى أهم الفهرسات المتوفرة، أي فهرسة موسايليان في طبعتها لعام 1963، نُشِر خلال هذين القرنين 53 كتابا ومقالة بالإنكليزية و37 بالألمانية و25 بالفرنسية يتحدث كتابها، كثيرا أو قليلا، عن المناطق الكردية وسكانها[71]. ولا يأخذ هذا العدد بنظر الاعتبار الكتب التي تُرْجِمت من وإلى هذه اللغات

---

lampoonist: Shaikh Riza Talabani, *JRCAS,* XXII/I, p. 111-124.

[70] قدمت هذه الدراسة في مؤتمر نظمتها المعارضة العراقية في لندن عام 2001 ونشرت في وقائع المؤتمر ضمن كتاب تحت عنوان *كركوك مدينة القوميات المتآخية*، لندن، 2002، ص 137–150. واعيد طبع الوقائع من جديد من قبل دار ئاراس في اربيل.

[71] موسايليان: *البيليوكرافيا الكردية*، الطبعة الاولى، موسكو، 1963، ص 13–21. يجدر الإشارة هنا إلى أن عددا من كتابات الرحالة الأوروبيين قد فات موسايليان. إلا أن كتابه يبقى المصدر الأول والأساسي حتى الآن في هذا المجال.

الثلاثة[72]. أي أن الإنكليز نشروا أكثر من ضعف ما نشره الفرنسيون عن الأكراد. وبالتالي يمكن الاستنتاج بأن عدد رحالتهم إلى المناطق الكردية وصلت إلى ضعف عدد الرحالة الفرنسيين، إن لم يكن أكثر.

ونجد إمتدادات هذا الاهتمام الإنكليزي الأكثر من الاهتمام الفرنسي في عصرنا الحاضر أيضا. فدراسات الباحثين البريطانيين بشكل خاص تتجاوز من بعيد حجما ومادة دراسات زملائهم الفرنسيين حول كردستان بشكل عام. وهذا صحصح فيما يخص كردستان العراق ومشكلة الموصل التي تشمل منذ الحرب العالمية الأولى في بعض جوانبها مدينة كركوك.

ولم تكن المطبوعات الفرنسية مخصصة الا نادرا للأكراد، بل كانت غالبيتها تخص رحلات مر كتابها بكردستان على طريقهم الى البلدان العثمانية والقفقاس وبلاد فارس والهند. فلم نجد من بينهم من

---

[72] لم يكن مؤلفو كتب الرحلات بالفرنسية كلهم فرنسيي الأصل أو يعيشون في فرنسا. كان عدد منهم ينتمي إلى القوميات الأوروبية الأخرى وكانوا يكتبون بالفرنسية لان الكتابة بها في القرنين الثامن والتاسع عشر كانت رائجة بين الطبقات المتعلمة والميسرة. وتعتمد هذه الصفحات على الكتب التي كتبت مباشرة باللغة الفرنسية وتترك جانبا الكتب المترجمة إليها. وقد يكون قد فاتنا بعض المصادر التي تدخل ضمن حدود هذا الإطار. ولا عذر لنا في ذلك غير الفكرة التي تؤكد أن لا كمال في الدراسات والأبحاث. وما كل دراسة إلا محاولة لفتح باب يقود إلى باب مغلق آخر من أبواب المعرفة.

كان هدفه الأول هو زيارة كردستان إلا في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر. لهذا بقيت الملاحظات حول كردستان في الكتب الفرنسية في غالبيتها سريعة ينقصها التفصيل إلا نادرا. ولكن أهميتها تبقى كبيرة وفي بعض المجالات أساسية، خاصة إذا أخذنا بنظر الاعتبار شحة ما حول المنطقة وسكانها من كتابات في تلك الفترة. ويعود ذلك بالدرجة الأولى إلى أن المنطقة الكردية كانت تدخل ضمن حسابات ثانوية للدولة الفرنسية ويدور حولها العديد من القصص والحكايات غير المشجعة على السفر إليها.

ويبدو أن سيور سيزار لامبيرت[73] هو أول فرنسي مر بكردستان عبر رحلته إلى بلاد فارس بين أعوام 1598 و 1599 وتحدث عنها ولو باقتضاب كثير. إلا أن جان باتيست تافارنيه الذي وصل إليها بعد لامبيرت بسنوات عديدة كتب عنها شيئا اكثر. وتحدث عن عدد من جوانب المدن التي مر بها.

ويذكر الباحث محسن احمد عمر في رسالته الجامعية التي قدمها إلى جامعة السوربون حول الرحالة الفرنسيين الذين زاروا كردستان

---

[73] LAMBERT, Sieur Cesar, *Relation d'un voyage en Perse fait dans les années 1598-1599*, Paris, 1651. (قصة رحلة إلى بلاد فارس خلال أعوام 1598–1599). نُشِر كتاب لامبيرت بعد نصف قرن من رحلته التي قام بها ضمن قافلة قادت السفير الانكليزي في الدولة العثمانية آنذاك إلى بلا فارس.

في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر بأن عددهم وصل إلى اثنين وثلاثين رحالة. ولكن العدد الحقيقي هو أكثر من ذلك[74].

كانت الرحلات تتم بدوافع سياسية واقتصادية بالدرجة الأولى. ولم تكن الرحلات العلمية تتحقق دون مساندة مالية وسياسية من الدول المعنية. فتكاليف السفر جعلت منها صعبة التنفيذ. ومع أن الرحالة الفرنسيين كانوا، وربما جميعهم، ينتمون إلى الطبقات المتيسرة وخاصة العلميين والعسكريين والتجار، إلا أن رحلاتهم كانت تتم بمساندة مادية وسياسية من قبل الوزارات الحكومية. وما كانوا ينشرونه فيما بعد يخضع لشيء من المراقبة والمعاينة الحكومية، أو بشكل آخر يحتاج الى موافقتها[75].

---

[74] تحاول هذه الرسالة دراسة مجموعة من المواضيع الكردية من خلال ما كتبه الرحالة الفرنسيين عنها. من ضمنها التأريخ والتنظيم الاجتماعي–السياسي، الوضع العشائري، الإمارات الكردية، الوضع الاقتصادي، صورة المرأة، اليزيديون، الخ. AHMAD OMAR, Mohsen, *Les voyageurs français au Kurdistan, XVIIe, XVIIIe et XIXe siècle*, Université de la Sorbonne Nouvelle, Paris 1996. (*الرحالة الفرنسيون في كردستان في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر*).

[75] لقد تقلصت هذه المراقبة بتقلص الدعم الاقتصادي وتقلص حجم الدوافع السياسية من وراء الرحلة. وقد ازداد عدد الرحلات الخارجة عن عيون الدولة المراقبة مع بزوغ القرن التاسع عشر وبالأخص منذ منتصفه وذلك مع تطور الرحلات الأدبية التي كان يقوم بها الأدباء، في عصر انتشر فيه أدب الرحلات

ولم تكن المنطقة الكردية، كالكثير من مناطق الشرق الأخرى، خالية من المخاطر. فكان الدعم الرسمي للدولة ضمانة للرحالة ورادعا بالنسبة للرؤساء في المناطق البعيدة عن المراكز والعواصم التي يمر بها الرحالة المحملة أحصنتهم عادة بالمواد الثمينة والأسلحة النادرة. وقد وقعت لبعضهم حوادث بقيت مشهورة لفترة طويلة من الزمن[76].

كان الطريق البري الرئيسي الذي يعرفه الرحالة ويمرون به هو طريق الحرير الذي ظل خلال ما يقرب من ألفي عام أشهر طريق يوصل أوروبا بالشرق. كان انطلاق الرحلات يبدأ بحرا من مدينتي فينيسيا وجنوا في إيطاليا وتمر القوافل البحرية جميعا عبر البحر الأحمر لكي تصل فيما بعد إلى الخليج العربي-الفارسي وأخيرا إلى الهند والصين. أما طريق الحرير البري فكان يبدأ من مدينة أثينا اليونانية من جانب ومن الإسكندرية في مصر من جانب آخر. ويتشعب منه فرعان بعد مدينة قونيا العثمانية. أحدهما يمر شمالا

بشكل واسع. فهناك من سخر ثرواته للقيام بمثل هذه الرحلات في الشرق. ولم يظهر مصطلح "الرحلة إلى الشرق" إلا في أواخر القرن الثامن عشر. ولا يبدو أن كردستان جلبت إلى نفسها الكثير من الرحالة الأدباء. إلا أن الرحالة السياسيين والتجار فإنهم اهتموا بها أكثر مما كانوا يتوقعون قبل مرورهم بها.

[76] أشهر هذه الحوادث ما وقع لأحد الرحالة الفرنسيين في كردستان هي حادثة بيير-آماديه جوبير الذي أرسله نابليون ليسلم رسالة إلى فتحعلي شاه في عام 1805-1806. يمكن العودة الى ترجمة ما كتبه جوبير ضمن هذا الكتاب.

بارضروم وتبليسي وشمال بحر القزوين والآخر يمر جنوبا بمدينة دير الزور وبغداد وطهران ثم إلى الهند والصين أيضا. وكان البري هو ما يسمى في الشرق بطريق التوابل أو طريق الهند. وظل هذا الطريق خلال قرون اقصر الطرق للوصول إلى بلاد الهند، إحدى أهم الأهداف السياسية والتجارية لأوروبا. وكان أقرب الطرق أيضا للوصول إلى بلاد فارس. وعلى الرحالة عادة أن يسلكوه في رحلاتهم إلى ما وراء الإمبراطورية العثمانية. فكانوا يستطيعون المرور بشمال وجنوب كردستان دون الحاجة إلى الدخول فيها. فشمالا عبر أرمينيا وجيورجيا وجنوبا عبر بغداد والبصرة، برا أو على ظهر الناقلات البحرية، كان الرحالة يستطيعون أن يصلوا إلى أهدافهم دون المرور بأراضي يقطنها أكراد أو دون أن يسمعوا عنهم شيئا. لهذا جعلت هذه الطرق من كردستان إحدى الجسور الثانوية للوصول إلى إيران والهند والصين، خاصة من الجوانب الاقتصادية. بل كانت تشكل منطقة تتفاداها القوافل بشكل عام. ولكن بعض الرحالة وبحكم كون قوافلهم محدودة الحمل والهدف وسهلة التنقل ولكونهم أكثر ولعا بمعرفة المنطقة من قبطان القوافل التجارية فانهم كانوا ميالين إلى السير في دروب جانبية، منها المعروفة ومنها غير المعروفة.

من هنا برزت مكانة طريق ارضروم-دياربكر-الموصل-بغداد الذي يوصل فرعي طريق الحرير الشمالي والجنوبي أحدهما بالآخر

دون أن يكون جزءا منه. وظهرت مدينة كركوك كنقطة للمرور عبر هذا الطريق.

إلا أن الرحالة القادم من العاصمة العثمانية والمتوجه إلى بغداد عن طريق الموصل أو العكس كان بإمكانه أن يمر على مسافة عدد من الكيلومترات غرب كركوك، دون أن يمر بها أو يكتب عنها. وذلك عبر طريق الموصل- قصر مشعان-تكريت-سامراء-بغداد. ومن ثم الذهاب إلى إيران عن طريق خانقين أو غيرها[77]. فلم تكن كركوك خلال قرون الرحلات مدينة مركزية في ذهن الرحالة ولا مركزا من الصعب أو الخسارة السياسية والاقتصادية أو المعلوماتية تفادي المرور بها. مع هذا فان عددا منهم سلكوا هذا الطريق ومروا بكركوك. ونسبتهم ليست قليلة في المجموع العام.

وبالإضافة إلى طريق الموصل-بغداد، كان هناك طريق آخر يزيد من حظ كركوك كمحطة رئيسية من محطات السفر. وهو الذي يمر بوسط كردستان، أي عبر السليمانية-سنندج-همدان ومن ثم اصفهان وطهران، إن كان المسافر قادما من بغداد أو الموصل أو

---

[77] هذا ما حدث لفونتانيه الذي قام برحلات إلى الشرق في العشرينات من القرن التاسع عشر وأوشر ايلوا الذي زار المنطقة بعده بسنوات في رحلة طالت ستة أعوام تقريبا، أي من عام 1835 إلى عام 1840. يمكن العودة إلى تفاصيل رحلاتهم في: FONTANIER, V., *Voyages en Orient*, Paris, Librairie Universelle, 1829. (*رحلات إلى الشرق*).

عائدا إليهما. ولكن هناك عدد من الرحالة ممن شقوا الطريق الوسطي، أي عبر السليمانية، دون المرور بكركوك[78] أو أن يمر السائح رأسا من الموصل إلى السليمانية دون المرور بكركوك في طريقه إلى إيران أو العودة من إيران إلى السليمانية ومنها مباشرة إلى الموصل[79].

يذكر أكثر الرحالة الفرنسيون الذين كتبوا عنها ما نقلته فيما بعد الانسيكلوبيديا الفرنسية الكبرى من أن كركوك تعد من أهم المدن في كردستان الجنوبية[80]. ويذكرون بأنها منطقة خصبة جدا ويصل إليها العديد من المصادر المائية. وينتج فيها الحنطة والشعير والذرة والحمص والعدس والقطن والتبغ والعنب والزيتون وأنواع أخرى من الفواكه والحبوب[81].

---

[78] مثال على ذلك رحلة المعماري باسكال كوست والرسام أوجين فلاندن إلى بلاد فارس بين عامي 1840 و 1841. يمكن العودة إلى كتابهم حول الرحلة: FLANDIN, Eugène et COSTE Pascal, *Voyage en Perse*, Paris, 1851. (رحلة الى بلاد فارس).

[79] هذا هو ما قام به تافيرنيه خلال رحلته في أواسط القرن السابع عشر مثلا. يمكن العودة إلى كتابه: TAVERNIER, Jean-Batiste, *Les six voyages faits en Turquie, en Perse et aux Indes*, Clousieur et Barbie, Paris, 1676. (*الرحلات الستة إلى تركيا وبلاد فارس والهند*).

[80] *La grande Encyclopédie*, tome 21, Tours, 1885, p. 485. (*الموسوعة الكبرى*).

[81] ROUSSEAU, J. F. X., *Description du Pachalik de*

ويبدو أن أول فرنسي زارها، كما ظهر لنا حتى الآن، هو أوتير الذي وصل إليها في 27 نيسان عام 1735، بعد أربع وثلاثين ساعة من السير انطلاقا من الموصل. وبقي فيها مدة ثلاثة أيام. وكان قد وصل عن طريق دياربكر–سيواس الذي لم يمر به قبله سائح غربي آخر، كما يذكر هو في مقدمة كتابه[82].

يذكر أوتير بأن كركوك مدينة متوسطة الحجم، تقع في منطقة سهلية حيث يرتفع بين مسافة وأخرى عدد من التلال. ولها سور وقلعة حصينة ذات انحدار حاد وعسير، تمر بأسفلها ساقية أسمها (خاسه سوو) أي الماء العذب[83]. ويبدو له أن القلعة تعود إلى عصور قديمة جدا، وكانت المدينة تنقسم إلى قسمين متميزين. يضم القسم الأول القلعة ويعيش فيها عدد قليل من السكان. أما القسم الثاني فانه يمتد في المنطقة السهلية المحيطة بالقلعة ويقع فيه المركز التجاري للمدينة.

إلا أن أول من يعطينا رقما لعدد السكان هو كليمان الذي زار المدينة في شهر تموز من عام 1856 وبقي فيها يومين. يقول بأن عددهم، من دون الجنود الذين يعيشون فيها، يبلغ قرابة 25000

Bagdad, Paris, 1809, p. 82. (*وصف باشالق بغداد*).

[82] OTTER , J., *Voyage en Turquie et en Perse*, Paris, 1748.
(*رحلة إلى تركيا وبلاد فارس*).

[83] *نفس المصدر*، ص 150.

شخص[84]. ويذكر ليكلاما الذي زار المدينة بعد ذلك بسنوات قليلة بأن عدد سكان المدينة يتراوح ما بين 12000 و 13000 شخص[85]. إلا أن هذه الأرقام تبدو أقل من الواقع فهي مختلفة جدا حول فترة واحدة ولان أحد المصادر الفرنسية التي تعتمد الإحصائيات العثمانية الدقيقة تؤكد بأن عدد سكان المدينة وضواحيها كان في أواسط القرن التاسع عشر حوالي 89000 شخص[86].

ولكي نحصل على عدد العساكر المتواجدة في كركوك علينا أن ننتظر صدور كتاب فيتال كوينيه الذي صدر بجزأيه الأربعة في العقد الأخير من القرن التاسع عشر. حيث يذكر بأن الحاكم العسكري لمنطقة كركوك يجد تحت تصرفه القوات التالية: الفرقة 12 من الجيش العثماني، الكتيبة 3 و 4 من فوج المشاة 45 والكتيبة 3 و 4 من فوج المشاة 46، والفوج 34 و 36 من الخيالة والفوج 51 و 101 من

---

84 CLEMENT, A., ‘Excursions dans le Kourdistan ottoman, de Kerkouk à Ravandouz’, *Globe*, Paris, 1866, p. 199. (رحلة في *كردستان العثمانية، من كركوك الى راوندوز*).

85 LYCKLAMA , A. Nigeholt, Voyage en Russie, au Caucase et en Perse, exécuté pendant les années 1865, 1866, 1867 et 1868 t. IV, Paris-Amsterdam, 1875, p. 87. (رحلة إلى روسيا والقفقاس وبلاد فارس خلال سنوات 1865، 1866، 1867 و1868).

16 *الموسوعة الكبرى*، المصدر السابق، ص 485.

الاحتياط[87]. إلا أننا لم نستطع العثور على مصدر يدلنا على عدد أفراد الفوج والكتيبة والفرقة في الجيش العثماني.

ويقول كليمان بان ثلاثة أرباع سكان كركوك هم من الأكراد[88]. وهو المصدر الوحيد الذي يتحدث، حسب علمنا حتى الآن، عن السكان من المنظور القومي. أما ليكلاما فانه يذكر بان عدد المسيحيين كان يبلغ في أواسط القرن التاسع عشر ما بين مائتين وثلاثمائة شخص بينهم ما يقرب من أربعين كلدانيا ونسطوريا. وكان يعيش فيها في نفس الفترة ما يقرب من ثلاثمائة عائلة يهودية[89].

ويشير ليكلاما إلى أن في المدينة ما يقرب من عشرة كنائس تعود إلى القرون الأولى للمسيحية وتحولت إلى مساجد. ويذكر بأنه توجد في المدينة ثلاثة مساجد يحتوي أحدها على مقابر أربعة من الأنبياء اليهود هم دانيال وميكائيل وحاناتيا وعازرية. ويقول بأنه لا يسمح لليهود بالصلاة عند هذه المقابر[90]. إلا أن اسرائيل-جوزيف بنجامين، الرحالة اليهودي الذي قام بجولة من عام 1846 إلى عام 1851 في بلدان الشرق بحثا عن الجماعات اليهودية هناك ودراسة

---

[87] CUINET, Vital, *La Turquie de l'Asie,* Paris, P. 851. (*تركيا الآسيوية*).

[88] آ. كليمان، *المصدر السابق* ، ص 199.

[89] ليكلاما، *المصدر السابق*، ص 87.

[90] *المصدر السابق*.

أحوالهم، كتب كلاما مختلفا عما كتبه ليكلاما. فمن جانب يذكر بأن بعض المصادر القديمة تذكر بأن النبي دانيال مات ودفن في بلاد فارس. وأنه رغم بحثه الدقيق عن هذا القبر هناك لم يجد له أثرا، مثلما لم يجد أية كتابة على قبره الكركوكي الذي أكد له السكان أنه قبر النبي دانيال. ويرى أن إدعاء سكان كركوك قد يكون قابلا للتصديق، رغم عدم وجود أي دليل ملموس على ذلك واعتماد الفكرة على حكايات شفهية وصلت من الأزمنة القديمة[91]. ويؤكد بنجامين من جانب آخر، على العكس من ليكلاما، بأن قبور الأنبياء اليهود «في وضع كامل من الصيانة والمحافظة وأنها مغطاة دائما بالأفرشة الجديدة وبأقمشة مزركشة في قمة الروعة والجمال وأن السكان، دون تمييز في الدين، يذهبون الى زيارة هذه المقابر والصلاة فيها بوقار عميق. وأن اليهود يزورونها بشكل خاص في اليوم الأخير من كل شهر وأثناء عيد الحصاد»[92].

ويؤكد الرحالة الفرنسيون على أن مدينة كركوك كانت ولفترة طويلة مركز باشالق شهرزور[93]. يذكر أوتير الذي زار المدينة مرتين

---

[91] BENJAMIN, Israel-Josef, *Cinq années de voyage en Orient 1846-1851*, Paris, 1856, p. 78. (*رحلة خمس سنوات في الشرق*، 1846–1851).

[92] *نفس المصدر*، ص 79.

[93] أنظر مثلا: كليمان، *المصدر السابق*، ص 197.

في عام 1735 و 1739 بان «كركوك هي عاصمة باشالق شهرزور الذي هو جزء من كردستان. وتتكون حكومة شهرزور من اثنين وثلاثين مقاطعة. ويحد باشالق شهرزور آذربايجان وبلاد بابان[94] وبلاد بغداد والموصل وعمادية وحكاري»[95]. ويذكر بأن باشا شهرزور جعل من كركوك محلا لإقامته[96].

أما اوليفيه الذي زار كركوك في العقد الأخير من القرن الثامن عشر فإنه يؤكد على أن المدينة محمية من قبل حامية قوية من الانكشاريين[97]. ويذكر أيضا بأن باشا بغداد هو الذي يعين متسلم كركوك بعد أن كانت تابعة ولفترة طويلة لباشالق شهرزور. ومن ثم أصبح تعيين المتسلم من صلاحية باشا بغداد وباشا شهرزور في آن واحد. إلا أن هذا الأخير فقد صلاحياته والاستقلالية التي كان يتمتع

---

[94] يذكر المؤلف ما تعودت الكتابات التاريخية الحديثة على تسميته بإمارة بابان تحت تسمية "العراق الفارسي" هذه التسمية التي كانت تطلق في الكتابات العربية على تلك الإمارة.

[95] ج. أوتير، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 235 .

[96] نفس المصدر، الجزء الأول، ص 150.

[97] ك. ق. أوليفيه، *رحلة إلى الإمبراطورية العثمانية ومصر وبلاد فارس، باريس 1801-1807*، الجزء الثاني، ص 374.

بها فيما مضى، فاصبح متسلم كركوك يُعَيَّن من قبل باشا بغداد وحده وبشكل مباشر[98].

ويقول دوبريه بأن المدينة أصبحت تحت الإمرة المباشرة لوالي بغداد في حوالي منتصف القرن الثامن عشر إثر التهديدات المستمرة للعديد من ولاة بغداد[99]. وأثناء مروره بكركوك عام 1808 كان والى بغداد هو الذي يعين متسلم كركوك وتعتبر المدينة ضمن الحدود القانونية لولاية بغداد[100].

ويذكر دوبريه بأن كركوك كان يديرها في السابق باشا يعينه الباب العالي مباشرة فيدير المدينة باستقلال تام عن سلطات باشوات المناطق المحيطة بها. وأشهر من عين على إدارتها هو ابن الأميرال الإيطالي سيكالا الذي استسلم بعد أسره، وبقي مسؤولا عن مدينة كركوك خلال فترة طويلة. وترك وراءه العديد من الآثار التي تشهد على حكمه. إلا أن دوبريه الذي شاهد هذه الآثار لا يعرفنا بها[101].

---

[98] *نفس المصدر.*

[99] DUPRE, A., *Voyage en Perse fait dans les années 1807, 1808 et 1809*, Paris, 1819, p. 132. (*رحلة إلى بلاد فارس خلال سنوات 1807، 1808 و 1809*).

[100] *نفس المصدر.*

[101] *نفس المصدر.*

والواضح أن كركوك بقيت مسألة خلاف بين ولاة بغداد وباشوات شهرزور الذين لم يقبلوا بضياع سيطرتهم عليها. إذ يذكر روسو الذي زار المنطقة بان متسلم المدينة في أوائل القرن التاسع عشر تلقى أمرا ببناء الدفاعات اللازمة ضد هجمات الأكراد المحتملة[102]. ويذكر أيضا بان سكان كركوك يستطيعون أن يرسلوا الى باشا بغداد ما يقرب من ستمائة جندي من المشاة المسلحين بأسلحة خفيفة[103].

ولكن الذي جلب انتباه الرحالة الفرنسيين في كركوك أكثر من أي شيء آخر هو النفط. والمسألة لا تبدو جديدة. إذ ينقل اوليفية عن المؤرخ اليوناني كنت-كورسه الذي عاش في القرن الأول الميلادي وألف كتابا من عشرة أجزاء حول تاريخ الكسندر قوله بان كركوك كانت تجلب الانتباه بسبب الكميات الضخمة من الزفت الذي يستخرج منها[104].

ويقول كليمان بأنه يستخرج النفط من بئر على بعد عدة أميال من كركوك يبلغ عمقه عشرون قدما وقطره متر ونصف. ويخرج من أعماقه ماء مالح خليط بدهن ثخين أسود اللون. ويستخرج من جوانب البئر نوع آخر من النفط أكثر نقاوة[105]. ويستخرج منه نوع من الملح

---

[102] روسو، *المصدر السابق*، ص 82.

[103] نفس *المصدر*.

[104] أوليفيه، *المصدر السابق*، ص 374.

[105] كليمان، *المصدر السابق*، ص 196.

نقي بارق البياض. ويذكر بأنه حين يخلو البئر من الماء ينزل رجل إلى أعماقه لاستخراج النفط الذي يوضع في إناء فخاري كبير ويُستَعْمل للإضاءة في جميع القرى المحيطة بكركوك ويُباعُ في أسواقها ويُصدَّرُ إلى أسواق بغداد[106].

ولم تكن كركوك وحدها معروفة بمثل هذا النفط. فمنطقة هيت على سبيل المثال كانت مركزا لاستخراج نوع من النفط أكثر جودة مما كان يستخرج من بئر كركوك[107]

وزار مدينة كركوك، ضمن رحلة الى اربيل والسليمانية، في عام 1878 الاب جاك ريتوري الذي كان يقيم آنذاك في الموصل[108]. يذكر

---

[106] *نفس المصدر*، ص 197.

[107] *نفس المصدر*.

[108] ما نذكره هنا حول رحلة الاب جاك ريتوري جديد بالنسبة للطبعة الاولى من هذه المقالة. فالمبشر الفرنسي الذي وصل الى كردستان في عام 1874 حيث عاش فيها، اضافة الى فترة قضاها في فلسطين، باقي حياته اذ قضى نحبه في الموصل في عام 1921. وقد ترجم الدكتور نجاة عبدالله رحلته الى الكردية. انظر: طەشتنامەي مسيۆنێرێك، بۆ ناوضەكاني كەركووك و سلێماني، (رحلة مبشر الى مناطق كركوك والسليمانية)، ونشرها في مركز ذين في عام 2008. والمصدر الاصلي: Jacques Rhétoré, 'Voyage d'un missionnaire dans les provinces de Kerkouk et de Sulimanié de l'empire turc', *L'Année Dominicaine,* n° 233, 1879, pp. 490-493, n° 234, 1879, pp. 240-245, n° 239, 1880, pp. 207-210, n° 242, 1880, pp. 353-367. (رحلة مبشر الى مناطق كركوك والسليمانية في الامبراطورية

ريتوري الصعوبات التي مرة. فقبل خروجه من عين كاوة في 24 حزيران تعرضت قافلتان خارج المدينة الى هجوم قطاع الطرق. وسار الاب ضمن قافلة خلال آلتون كوبري ثم الى كركوك حيث وصلها في الساعة الثانية صباحا ولم يفتح له اصاب الخانات الباب. فنام في زقاق واكتشف فيما بعد انه فقد كفيتين كان يضعهما على رأسه وادرك ان ضابطين عثمانيين كانا معه في الرحلة هما اللذين سرقا منه كفيتيه. واستقبل في اليوم التالي من قبل مطران المدينة وعاش بين مسيحييها خلال اكثر من اسبوعين.

يذكر ريتوري بأن عدد المسيحيين في داخل مدينة كركوك يصل الى خمسين عائلة وفي منطقة قورية المحاذية لها الى عشرين عائلة. اما عدد سكان المدينة فانه يقترب من ثلاثين الف نسمة، من بينها مايقرب من مائتين بيت يهودي[109]. ويقر ريتوري بان تنوع معتقدات السكان لا يمنع السكان من ان يعيشوا من انسجام جيد. وقد يصل هذا الانسجام الى حد ان يطلب المسلمون من القس المسيحي ان يحل خلافاتهم. ويوجد في المندينة وضاحيتها بطران وقسان ومدرسة للاولاد يدعمها التبشير يتعلم فيها التلاميذ اللغة الكلدانية اضافة الى المواد الدينية. ويذكر بان اللغة التركية هي اللغة المشتركة بين جميع السكان. في حين لا تحصل الفتيات على اي تعليم، رغم طلب العوائل،

العثمانية).

[109] نفس المصدر، ص 541-542.

وذلك لقلة الكوادر التعليمية في تلك المدارس التبشيرية. ويذكر ريتوري بان في كركوك مياه غزيرة ساعدت على سقي بساتين جميلة جدا فيها اشجار البرتقال والرمان والليمون والنخل. ويصنع في المدينة من ورد البرتقال ماءا معطرا تعود الناس رش ملابس ورأس من يزورهم به. وتوجد على بعد ساعة من المدينة وعلى طريق آلتون كوبري مصادر نفط عنية، اشار اليها في السابق زينفون. وينبع في وسط هذه المصادر ساقية ماء صافي تشربه منه الحيوانت بشره، يبدو انه يسمن الحيوانات بسرعة. ويرى السكان في هذه المياه دواءا لبعض الامراض الجلدية[110].

وذكر أوتر في أواسط القرن الثامن عشر بأن هناك تلة على بعد ساعتين من كركوك تسمى كوركوربابا. وحسب ما نقله الناس إليه: «إذا ما حفر الإنسان حفرة على قمة تلك التلة لخرجت منه مادة تحترق في الهواء إلى حد توصل الماء إلى درجة الغليان. ويختفي لهيب النار إذا ما غطيت الحفرة بالتراب. وتوجد بالقرب من المكان باتجاه الغرب ثلاثة عيون من النفط تُشكل جدولا واحدا. ولو ألقيت قطعة من القطن أو القماش الملتهب في إحدى هذه العيون لخرج منها دوي حاد جدا. وتبقي العين غارقة في الدخان إلى أن تحترق المادة تماما. عند ذلك فقط، حسبما سمع الرحالة الفرنسي من السكان، أي عند احتراق المادة تماما، تنطفئ النار المشتعلة في العين القريبة من كركوك»[111].

---

[110] نفس المصدر، ص 543.

[111] أوتير، *المصدر السابق*، الجزء الأول، ص 152-153

ابعاد ظهور الطريقة النقشبندية في كردستان في اوائل القرن التاسع عشر[112]

هَلَكَوْت حكيم

بهزيمة جيوش بلاد فارس امام قوات السلطان العثماني سليم الثاني في سهل جالديران (شمال-غرب بحيرة اورمية في كردستان ايران) عام 1514 بدأت مرحلة صراع دائم بين الامبراطوريتين العثمانية والفارسية. ادرك الجانبان بعد هذا، كما يذهب الى ذلك ارنولد توينبي، بان سقوط احدهما سقوطا نهائيا امر متعذر. حيث غدا الموقف الاستراتيجي يتطلب محاصرة العدو بالاستيلاء على المناطق المحيطة به، اي، وبمعنى آخر، اصبح من الصعب ان يتخذ النزاع مجاله داخل ايران نفسها او في آسيا الصغرى ذاتها[113]. وكنتيجة تمركز الصراع في المناطق الفاصلة بين الامبراطوريتين المتجاورتين وكان اكثر من 450

---

[112] تشكل هذه الدراسة خلاصة الاطروحة التي قدمتها الى جامعة باريس الرابعة- السوربون، في عام 1983. ونشرت لاول مرة في العدد الاول من مجلة *دراسات كردية،* والتي صدرت في باريس عام 1984. وقد اعيد نشرها باللغة العربية مرات عديدة وترجمت الى اللغة الكردية مرتين. وفي كل الحالات كنت اكتشف امر نشرها او ترجمتها مصادفة وبعد فترة. ونشرت في مجلة لم ارها حتى الآن بعيني ولم اسمع بها الا صدفة.

[113] محمد انيس. *الدولة العثمانية والشرق العربي.* القاهرة، بلا تاريخ، ص 108.

كم منها يمر عبر اراضي كردستان. لذا جعل هذا الموقع من كردستان ساحة رئيسية لتطبيق هذه الاستراتيجية العسكرية التي نعرف مظاهرها المختلفة عبر اربعة قرون.

لقد كان كردستان يشكل للامبراطوريتين، اضافة الى اهمية موقعه الاستراتيجي، مصدرا اقتصاديا خصبا. فامارات اردلان، كرمانشاه ولرستان – والتي لم تكن تشمل معظم ما تعارف على اعتباره اليوم ضمن كردستان ايران– كانت تقدم في القرن التاسع عشر 37000 تمن من الضرائب السنوية الى الدولة الفارسية، اي ما يعادل 14% من مجموع ما كانت تدفعها الهيئات الادارية الستة عشر لخزينة الشاه[114]. وفيما يتعلق بالجانب الآخر، ذكر اماديه، احد مندوبي نابليون لدى الشاه الايراني في 1805-1806، والذي زار شمال كردستان، بان «الجيوش العثمانية التي كانت تحارب ضد نابليون في مصر تعيش على لحوم الحيوانات المستوردة من كردستان»[115] ويحدد عدد رؤوس ما يصل منها الى القسطنطينية بمليون ونصف راس سنويا.

---

[114] محمد عاصف هاشم، *رستم التواريخ*، (أقوى التواريخ) طهران، الطبعة الثالثة، 1978، ص 321.

[115] Pierre-Amadée Jaubert, *Voyage en Arménie et en Perse,* Paris, 1821, p. 77. (*رحلة الى ارمسنيا وبلاد فارس*). يرى القاريء في قسم آخر من هذا الكتاب القسم المتعلق بالاكراد من هذا الكتاب مترجما كاملة.

لم تكن بلاد الاكراد مقسمة ثنائيا بين هاتين القوتين فقط، بل كان كل قسم يتجزا منها بدوره، الى امارات اقطاعية يعود فجر بعضها الى القرن العاشر الميلادي. عدد كامبانيل اهمها في اوائل القرن التاسع العشر: اردلان، كرمانشاه ولرستان تحت نفوذ الامبراطورية الفارسية ; بابان، بتليس، سوران، حكاري، بادينان و بوتان ضمن السلطة العثمانية[116]. وكانت هذه الامارات في حالة تناحر شبه دائم فيما بينها. تحكم كلٌ واحد منها عائلةٌ اقطاعية يتنازع ابناؤها على السلطة جيلا بعد جيل. وكانت السلطتان المركزيتان، العثمانية والصفوية، تستغلان

---

116 G. Campanile, *Histoire du Kurdistan,* traduit de l'italien par Thomas Bois, L'Harmattan, Paris, 2004, 11, (*تاريخ كردستان*). كامبانيل مبشر ايطالي ارسل في بعثة تبشيرية الى الموصل من عام 1802 وحتى عام 1815. زار مناطق عديدة من بلاد ما بين النهرين وكردستان. نشر كتابه هذا في نابولي بايطاليا في 1818 وترجمه توما بوا الى الفرنسية. الا ان هذه الترجمة لم تنشر حتى عام 2004. توجد نسخة منها مطبوعة على الالة الكاتبة في مكتبة معهد الدراسات الشرقية في باريس. وقد اعتمدنا على هذه النسخة اثناء دراستنا وعلى النسخة المنشورة في اعادة تهيأة هذه الدراسة هنا. ورغم كون الكتاب مليئا بالمعلومات الخاطئة والنابعةِ من روح انفعالية معادية للاكراد الا انه يحتوي على مجموعة من الملاحظات والارقام المفيدة جدا بالنسبة للفترة التي يتحدث عنها. ففيه من المعلومات التي يصعب خلقها وتبدو صحيحة، تدعمها الارقام التي ظلت نادرة حتى الفترات الاخيرة من تاريخ الاكراد.

هذا النزاع بمهارة لتضعيف قوة الامارات وكبت جنوحها، بين الحين والاخر، نحو الاستقلال او نحو الامبراطورية الاخرى.

ان دراسة تاريخ كردستان في اوائل القرن التاسع عشر تبين سمات اساسية تميز بها الوضع السياسي العام انذاك يمكن تحديدها في النقاط التالية: 1. النزاع العثماني- الصفوي وانعكاساته على الاكراد، 2. تناحر الامرات فيما بينها، 3. التحضير العثماني للقضاء على كيان الامارات و تطلعاتها نحو الاستقلال، 4. الصراع داخل العوائل الكردية الحاكمة، 5. الصراع بين سلطة الحكام الاكراد وسكان الامارات ذاتها[117].

---

[117] ربما تثير السمة الاخيرة بعضا من علائم الاستفهام لدى المتخصصين في الدراسات الكردية. في حين ان اهميتها لهذا الموضوع كبيرة وذلك لان الحركة النقشبندية في السليمانية تدخل، بنظرنا، ضمن هذاالاطار. لذا نقدم مثالين عليها:
ا. ذكر ريج معلومات حول تمرد سكان مدينة بانة في كردستان ايران والمجزرة التي ارتكبتها حكومة اردلان بحق مجموعة من المتمردين ضد الضرائب، على مرأى من اهل المدينة. انظر. Claudius James Rich, *Narrative of a Residence in Koordistan and on the site of Ninveh*, v: I, London 1836/1972, p. 245. (*رواية اقامة في كردستان وموقع نينوى*).
ب. ويذكر شاملوف وجود ملجأين في كردستان الشمالي يلجا اليهما المضطهَدون من قبل الامراء الاكراد انظر: شاميلوف، حول مسالة الاقطاع بين الكرد، ترجمه عن الروسية الدكتور كمال مظهر كمال احمد، بغداد 1977، ص 70.

فيما سبق حاولنا تقديم ملاحظات مقتبضة حول الهيكل العام للوضع السياسي في كردستان في الفترة التي سبقت ظهور الطريقة النقشبندية ومن ثم تزامن واياها. هذه الملاحظات ستساعدنا في النظر بتفصيل اكثر الى بنية وتاريخ احدى هذه الامارات وهي بابان، مسقط راس الطريقة النقشبندية في كردستان[118].

---

[118] ضيق المجال لا يسمح لنا بالتطرق الى ماهية النقشبندية من الجانب الديني– الصوفي والتاريخي. يمكن الحصول على معلومات حول هذا الموضوع في المصادر الاتية بشكل خاص: محمد امين الكردي، *تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب*، القاهرة، 1948. عبدالمجيد بن محمد الخاني، *الحدائق الوردية في حقائق اجلاء النقشبندية*، دمشق 1889. Hamid Algar, "The Naqshabandi Order; A preliminary Survey of its history and significance", *Studia Islamica*, Paris, 1976, pp. 123–152. Ahmed Aziz, "The Naqshabandi Reaction", *Studies in Islamic Culture in the Indian Environment*, Oxford, 1964, pp. 182–190.

ترجمة العنوانين: (الطريقة النقشبندية: نظرة عامة على تاريخها ومغزاها)، (رد الفعل النقشبندي).

وللحصول على مصادر اكثر يمكن الرجوع الى: Hamid Algar, "Bibliographical notes on the Naqshabandi Tariqat", *Essays in Islamic Philosophy and Science*, Albany– New-York, ed. George F. Horani, 1975, pp. 254 – 259. (ملاحظات فهرسية حول الطريقة النقشبندية).

ويجد القارئ في رسالتنا بيبلوكرافيا عامة حول هذه الطريقة تحتوي على (176)

امارة بابان

معلوماتنا حول بدايات تشكيلها نادرة جدا ان لم تكن معدومة. ما ذكره المؤرخون حول تاريخها السابق للقرن السابع عشر يحتاج الى المزيد من البحث والتنقيب. صورتها تصبح اكثر وضوحا في اذهاننا منذ حوالي عام 1686 حين تلقى أحد رؤساء العشائر القاطنة في منطقة بشدر، فَقي احمد لقب "بَبَ" او "بابان" من السلطان العثماني ومكافئات اخرى كمساحات شاسعة من الاراضي، مقابل خدمة قدمها للسلطان خلال صراعه مع الصفويين. منذ هذا التاريخ سجلت الامارة صعودا لولبيا في دورها السياسي والعسكري سواء على صعيد كردستان او العراق- العربي او في علاقتها مع الصفويين والعثمانيين. لهذا ولاشك، عوامل كثيرة نذكر منها: موقعها الجغرافي السياسي[119] من الامبراطوريتين والذي منحها امكانية "اللعب على الحبلين"، منافستها للامارات الاخرى للهيمنة في المنطقة، وتطورها الاقتصادي المثير

مصدرا: Halkawt Hakem, *Confrérie des Naqshbandis au Kurdistan aux débuts du XIXe siècle,* Université Paris IV-Sorbonne, 1983, pp. 280-311. (*الطريقة النقشبندية في كردستان في اوائل القرن التاسع عشر*).

[119] يصعب كثيرا معرفة الحدود الدقيقة لهذه الامارة. ما رسمه المؤرخون لها ليس الا حدودا تقريبية، تغيرت مرارا عبر السنين.

نتيجة لموقعها من خطوط تجارية مهمة، تطور الزراعة والري فيها... الخ.

ورغم الدور الكبير للمذهب الديني في تحديد التوجه الذهني والموقف السياسي لسكان المنطقة في القرون الاربعة الماضية – فالسنة كانوا منحازين الى الباب العالي والشيعة الى الصفويين والقارجين فيما بعد– الا انه من الملاحظ بان شرخا كبيرا حدث بين الزعماء البابانيين في تمايلهم نحو الامبراطورتيين وذلك ابتداءا من القرن الثامن عشر. كان الاتجاه الاقوى في العائلة البابانية الحاكمة يتعاطف، لأسباب عديدة يضيق مجال ذكرها هنا، مع الصفويين رغم كونهم وسكان اماراتهم ينتمون الى المذهب السني. لقد لعب الفرس دورا عسكريا احيانا وسياسيا غالبا في تعيين حكام الامارات. الا ان السلطان التركي كان هو المعني مباشرة بتسمية الامير البابانى بعد ترشيحه من قبل والي بغداد في اغلب الاحيان. وسرت العادة، في هذا المجال، على الاحتفاظ بمنافس الامير العائلي في بغداد لتهديده به ورده عن كل محاولة تمرد.

كانت علاقات امارة بابان مع الامارات الكردية الاخرى تشبه علاقات من يتحين الانقضاض على جاره: في عام 1787 احتل جيشها امارة عمادية[120] ولم يهدأ نزاعها مع سوران الا في سنة 1810 بعد ان

---

[120] س. هـ. لونكريك، *اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث*، ترجمة جعفر الخياط، بغداد، 1968، ص 209.

تم الزواج بين اثنين من افراد العائلتين الحاكمتين[121]. وكان اختيار البابان للهجة غير اللهجة الكورانية، لهجة اردلان، كلغة شبه رسمية لها تستهدف، اساسا منافسة الكورانية[122].

بالاضافة الى التزام العشائر، القاطنة داخل الحدود البابانية، بارسال اعداد محدودة من الفرسان والمقاتلين الى ساحات القتال التي كانت تخوضها الامارة، عمل زعماء بابان على تنظيم جيش خاص بهم مزود باسلحة مصنوعة محليا في اغلب الاحيان. ورغم ان هذا الجيش كان يدرب للدفاع عن الامارة من التهديدات الخارجية، الا انه لم يتردد في قمع بعض العشائر العربية المتمردة على الباب العالي تلبية لطلب من العثمانيين وتحقيقا للمطامح الفردية للامراء البابانيين انفسهم.

ان التطور الاقتصادي والسياسي للامارة خلال القرن الثامن عشر دفع بأمرائها الى التفكير بانشاء عاصمة جديدة. فالقديمة، قلاجولان لم يعد بامكانها ان تستجيب لمتطلبات الظروف المستجدة، اذ ان اهم سبب لاختيارها عاصمة في الماضي، اي وعورة منطقتها درءا لهجمات الجيوش الاجنبية، أصبح في اواخر القرن الثامن عشر سببا اساسيا للتخلي عنها. ووقع اختيار ابراهيم باشا الباباني، الموالي

---

[121] *نفس المصدر*، ص 285.

[122] كانت اللهجة الكورانية هي لغة الادب والكتابة، اضافة الى الفارسية، والتي تعتمدهما امارة اردلان الكردية ضمن الامبراطورية الفارسية. وكانت المنافسة بينها وبين الامارة البابانية قوية.

للعثمانين، على منطقة ملك هندي (مَلْكَنْدي) موقعا لعاصمته. بدأ العمل في بنائها في عام 1780 وانتهى بعد اربعة اعوام. سميت العاصمة الجديدة بالسليمانية (سليماني او سولَيْماني)، بسبب العثور، اثناء الحفر، على خاتم نقش عليه اسم سليمان. غير ان الباشا البابانى كتب الى سليمان باشا، والي بغداد آنذاك، بان التسمية كانت نسبة اليه[123]. وحينما سأل ريج، ممثل شركة الهند الشرقية في بغداد، أحد أحفاد ابراهيم باشا عن دوافع جده لاختيار تلك المنطقة لبناء عاصمته، اجابه: «لأنه كان يحب الصيد وهذه المنطقة تساعد على ذلك اضافة الى وفرة المياه فيها»[124]. في حين يوكد كامبانيل بان السبب كان ملائمة موقعها تجاريا[125]. يبدو لنا ان كامبانيل محق في اعتباره لهذا العامل دافعا اساسيا لبناء المدينة. فازدهار التجارة بعد مرور زمن قصير على انشائها دعم لرأيه.

في عام 1784 انتقلت المؤسسات الحكومية البابانية الى العاصمة الجديدة التي فتحت ابوابها لكل قادم. وكان قد استقر فيها اغلب العمال الذين عملوا على بنائها. اضف الى ذلك نزوح سكان القرى والارياف المجاورة والبعيدة اذ بلغ نفوسها عام 1810 خمسة عشر

---

[123] الشيخ محمد الخال، *الشيخ معروف النهودي البرزنجي*، بغداد، 1961، ص 61.

[124] ريج، *المصدر السابق*، ص 119.

[125] كامبانيل، *المصدر السابق*، ص 14.

الفا، من بينهم 800 يهودي و100 مسيحي[126]. وكانت في المدينة عام 1820، 6 خانات، 5 حمامات عامة و5 مساجد[127] وحمام خاص للباشا الحاكم[128] بالاضافة الى 2144 دارا يعود 130 منها لليهود و9 الى الكلدان والى الارمن[129]. وغدت المدينة في اوائل القرن التاسع عشر مركزا تجاريا مهما. وصف الرحالة خطوط تبادلاتها التجارية مع المدن الاخرى على النحو الاتي:

1. سليمانية– بغداد وبالعكس، 2. سليمانية– كركوك وبالعكس، 3. سليمانية– موصل وبالعكس، 4. سليمانية– سنندج– همدان وبالعكس، 5. سليمانية– تبريز وبالعكس، 6. سليمانية– ارضروم وبالعكس، 7. سليمانية– مصر وبالعكس[130]. وكانت القوافل تخرج من السليمانية محملة بالحنطة، التبغ، الجبن، السماق، الصابون، العسل، العفس، الفواكه، الزر، الجوز، الحريرالطبيغي والقهوة، وكانت تسوق معها الاغنام. بينما كانت القوافل التي تصلها تجلب معها التمر، القهوة، الاقمشة، البضائع الهندية، الاحذية، الجلود، المصنوعات اليدوية،

---

[126] *نفس المصدر*، ص 16.

[127] ريج، *المصدر السابق*، ص 120.

[128] *نفس المصدر*، ص 94–95.

[129] *نفس المصدر*، ص 120.

[130] حول هذه الخطوط راجع كتاب الدكتور شاكر خصباك، *الاكراد، دراسة جوغرافية اتنوكرافية*، بغداد، 1972، ص 223–224.

النحاس والحديد. وكانت بغداد تستورد الخشب من الامارة عن طريق نهر سيروان[131]. وكانت الرحلات التجارية تتكرر مرة او مرتين في الشهر، بينما القوافل المتوجهة الى مصر او القادمة منها فنادرا ما كانت تتعدى رحلة سنوية واحدة. وذكر كامبانيل حينما زار السليمانية في 1810، بان التجارة في الامارة البابانية كانت اكثر ازدهارا وتنظيما منها في الامارات الكردية الاخرى. وادى ذلك الى تطور الصناعات اليدوية، خاصة فيما يتعلق بمواد البناء والاسلحة. وكانت اسلحة الجيش البابانى (مدافع، سيوف، خناجر... الخ) وتجهيزات عسكرية اخرى بالاضافة الى الاسلحة الخفيفة للعشائر، تُصْنع في المعامل التي شيدها البابانيون بمساعدة الخبراء الروس[132]. وقد حفظ التاريخ اسماء حرفيين اكراد اشتهروا بصناعة الاسلحة مثل وَستا حسيني جَخْماخساز.

كل هذه الظروف خلقت سوقا جديدا لم تكن الامارة تعرفها من قبل، الامر الذي ادى بدوره الى تبلور شرائح اجتماعية جديدة. فمنهم التجار والحرفيون والعاملون في الخانات والبناء والقوافل والتجارة... الخ والذين سنطلق عليهم هنا اسم "البازاريين". وكان اغلب هؤلاء ينتمون الى اصول ريفية عانوا من قمع ملاكي الاراضي الزراعية المدعومين من قبل السلطة البابانية. ولم يكن معظم هذا الكيان الاجتماع-

---

[131] ريج، *المصدر السابق*، ص 119.

[132] جمال بابان، "السليمانية من نواحيها المختلفة"، *مجلة المجمع العلمي الكردي*، العدد، 8، بغداد، 1981، ص 417.

الاقتصادي- الجديد قد قرر الاستقرار في المدينة، بعد. بل ظل معلقا وحائرا بين الريف والمدينة رغم ميله الواضح للاستقرار في الاخيرة. لذلك لم يكن بمحض ارادتهم عندما قام الكثيرون، فيما بعد، بعد تدهور الحالة الاجتماعية/ السياسية في المدينة، بالهجرة المعاكسة. وقد وجد هذا الكيان، منذ بداية تكوينه، نفسه في تناقض مع السلطة البابانية والاقطاعيين الساكنين في المدينة والعازمين على السيطرة على السوق الجديد مثلما كان امرهم مع عملية الانتاج في الريف. ولم يكن لدى اعضاء هذا الكيان الجديد رؤية سياسية واضحة للوضع ولا تنظيم يجمعهم ويجعل من مصالحهم المشتركة المهددة رباطا بينهم. لذلك لم يكن من المستغرب ان يجتمعوا، ولو لوقت محدد، حول الطريقة النقشبندية منذ ظهورها في السليمانية عام 1811. اذ غدوا قاعدتها الاجتماعية الرئيسية في المدينة[133]. حيث جمعتهم الطريقة في جبهة واحدة مع معارضين آخرين للسلطتين السياسية البابانية والدينية/ الاجتماعية السائدة في المدينة والمتمثلة، انذاك، بالطريقة القادرية وشيوخها.

---

[133] في كل البلدان التي انتشرت فيها هذه الطريقة تبنتها الطبقات المتوسطة وخاصة البازاريون، وشكلوا قاعدتها الاجتماعية الرئيسية. ويعود هذا الى اسباب عديدة اهمها مفهوم هذه الطريقة حول العمل. فواحدة من اسسها الاحدى عشر: "خلوت درانجمن" اي "الوحدة بين الجموع" ويعني ان يكون المريد بجسمه بين الناس لكسب قوته و بروحه مع الله لكسب رضوانه.

مؤسس النقشبندية في كردستان[134]

اختلف المؤرخون حول تاريخ ميلاد ضياء الدين خالد حسين مؤسس الطريقة النقشبندية في كردستان وبلدان اسلامية اخرى، والمعروف بمولانا خالد النقشبندي[135] ولكنهم حصروا تقديراتهم في سنوات 1776-1779. ويبدو ان ما سجله ابن اخيه الشيخ محمد أسعد صاحب زادة حول هذا الموضوع أي 19 كانون الثاني 1779 هو الاقرب الى الاعتقاد[136].

---

[134] دخلت الطريقة النقشبندية الى كردستان قبل القرن التاسع عشر. الى أنها لم تنتشر كثيرا وبقيت محصورة في مناطق محددة ولم تتطور فيما بعد بل على العكس تقلص نفوذها وانشارها شيئا فشيئا. وما صار معروفا بعد القرن التاسع عشر من هذه الطريقة لا تمت بصلة بسابقتها في كردستان.

[135] لمزيد من المعلومات التفصيلية حول حياة ملانا خالد يمكن الرجوع الى: الشيخ محمد الخال، *المصدر السابق*، ص38-53. ابراهيم فصيح البغدادي، *المجد التالد في مناقب الشيخ خالد*، استنبول، 1872. عباس العزاوي، "مولانا خالد النقشبندي"، *مجلة المجمع الكردي*، العدد الاول، بغداد، 1973 ص 696-727. ملا عبدالكريم مدرس، يادى مەردان: مەولانا خالدى نەقشبەندى (ذكرى النبلاء: مولانا خالد النقشبندي)، بغداد، 1979.

[136] محمد بن سليمان البغدادي، *الحديقة الندية في اداب الطريقة النقشبندية والبهجة الخالدية*، مصر، 1895، ص 30.

فتح ضياء الدين عينه على الحياة في قرية قَرَداغ الواقعة على بعد حوالي 30 كيلومترا في جنوب السليمانية، والتي اعتبرها كامبانيل في عام 1810 واحدة من اكبر ضواحي الامارة. وكانت القرية تعتمد على ثلاث عيون للماء، يسيطر الحاكم البابانى للمنطقة على عينين، بينما يتزود سكان القرية جميعا من عين واحدة[137].

كان لأبيه شيء من الثقافة الدينية افادته في سنوات تعليمه الاولى ثم توجه الى المدارس الدينية في المدينة. هذا كل ما نعرفه عن الفترة الاولى من حياته. ولانعرف عن عائلته المزيد، غير ان الواضح أنها لم تكن تنتمي الى ارستقراطية عشيرتها، الجاف.

كعادة طلاب العلم انذاك في كردستان ترك خالد مدينته في الرابعة عشر من عمره مسافرا في طلب العلوم الاسلامية لدى الاساتذة الموجودين في بلاد الاكراد. تجول لهذا الغرض كثيرا في امارتي بابان واردلان. اخذ العلوم عن عدد من مشاهير عصره. وفي حوالي 1799 اكمل الدروس المفروضة على طلاب شهادة العلوم الاسلامية. وما نيله لهذه الشهادة في هذا العمر الا دليلا على قدراته الذهنية التي تراكمت حولها الاساطير والحكايات فيما بعد بشكل لا يمكن تمييز الواقعي فيها من المصنوع. في العام نفسه عرض عليه باشا بابان وظيفة دينية في السليمانية. الا أنه رفض قبولها بحجة اعذار تبدو لمعظم المؤرخين

---

137 كامبانيل، *المصدر السابق*، ص 40.

غير حقيقية. كان في الواقع يستصغرها بدليل قبوله وظيفة ارفع شأنا في السنة التالية. هذه الحادثة وغيرها تبين توتر العلاقة بين الملا خالد والسلطة السياسية للأمارة.

يذكر معظم الذين كتبوا حول سيرة حياته قصة رواها بنفسه فيما بعد حدثت له مع درويش هندي، تعبر عن شوق ورغبة الملا خالد في الوصول الى شيخ متصوف، ايا كانت طريقته، ليقوده في مرتبات التصوف. هذه القصة جعلته يفكر دون انقطاع في السفر الى الهند لأخذ طريقة صوفية. المجلب للانتباه انه رغم وجود واحد من اكبر شيوخ الطريقة القادرية، الشيخ معروف النودهي، في مدينة السليمانية ذاتها، الا انه لا يبدو انه درس شيئا معه او انه خطر بباله أن ياخذ الطريقة على يده. بل أخذ فيما بعد اجازة الطريقة القادرية من شيخ هندي. هذا المثال والكثير من الامثلة الاخرى تبين الموقف الذي كان الملا خالد يكنه للسلطة الدينية في العاصمة البابانية. فالشيخ معروف النودهي كان رئيسا لعلماء الدين في امارة بابان.

سافر الملا خالد الى الهند في عام 1808 عبر بلاد فارس حيث عاش تجرة صعبة هناك مع الشيعة. اذ دبر هؤلاء محاولتين لاغتياله، غير انه نجا منهما. قضى سنة كاملة في دلهي بالهند مع الشيخ عبدالله الدهلوي، مرشد الطريقة النقشبندية. نجهل كل ما يتعلق

بهذه الفترة من حياته، ولم يتحدث هو عنها الا قليلا جدا[138]. عاد الى كردستان وهو يحمل من شيخه أمر الدعوة الى النقشبندية في البلدان العثمانية[139]. فبدأ الدعوة لاول مرة في مدينة سنندج، فانتسب اليه استاذه السابق الشيخ محمد قسيم كردستاني ودخلت طريقته مجموعة من اهالي المدينة. ثم وصل الى مسقط رأسه، مدينة السليمانية في عام 1811، فاستقبل استقبالا كبيرا. توجه بعد ذلك بفترة قليلة الى بغداد وظل فيها خمسة اشهر دخل خلالها عدد كبير من علماء المدينة وسكانها في الطريقة، من بينهم والي بغداد، سعيد باشا، وخلفه داود

---

[138] في السنوات الاخيرة خصص المستشرق الاسترالي ارثر بهلر (Arthur Buehler) جانبا من دراساته حول الاسلام في الهند للفترة التي قضاها مولانا خالد في الهند. يمكن العودة الى دراسته بالانكليزية 'Mawlânâ Khâlid and Shâh Ghulâm 'Ali', *Journal of the History of Sufism,* n° 5, Paris–Istanbul, 2008, pp: 199–214. وترجمت هذه الدراسة الى اللغة الكردية من قبل محەمەد حەمە ساڵح تۆفیق ونشرت بدار ئاراس في عام 2009، بمناسبة انعقاد المؤتمر العالمي الاول حول مولانا خالد النقشبندي في مدينة السليمانية، ضمن مجموعة من الدراسات الاخرى التي اصدرتها مجلة *تاريخ التصوف* في عددها الخامس المخصص لمولانا خالد النقشبندي. يمكن العودة الى *ڕێبازی سۆفیگەری نەقشبەندیی-خالیدی، مەولانا خالید و تەریقەتی خالیدی،* (*الطريقة الصوفية النقضبندية–الخالدية، مولانا خالد والطريقة الخالدية*)، ص 157–189.

[139] *المصدر السابق* بالانكليزية، ص 201، وبالكردية ص 160.

باشا. عاد في نفس العام الى السليمانية ليبدأ نشاطا مركزا في الدعوة الى الطريقة. الا ان الظروف التي استجدت حوله وضعته امام تجربة صعبة لم يخرج منها منتصرا.

انتشار الطريقة

تُعد سنوات 1811-1820 من أخصب السنوات التي عاشتها هذه الطريقة في كردستان. فقد حققت شعبية ادهشت جميع دارسي تاريخ هذه الفترة وذلك رغم مواجهتها عداءا مستمرا من قبل القادريين ومن لدن أمراء بابان من حين الى آخر.

بعودة مولانا خالد الى السليمانية في العام 1811، دخل عدد كبير من السكان في الطريقة. بالاخص البازاريون الذين كانت الظروف الحربية التي تعيشها الامارة تضر بمصالحهم، اذ أن عداء هؤلاء للاقطاعيين المتجمعين حول القوتين السياسية والدينية/الاجتماعية في العاصمة في ذلك الوقت كان معروفا. وقد عبروا عنه في أوائل القرن الماضي بأشكال مختلفة وفي مناسبات مختلفة[140]. فشكلت الطريقة الجديدة بالنسبة لهم اطارا يلتقي فيه عدد من مصالحهم المشتركة. لذا كان دعمهم في البداية لها قويا. ثم أخذ الدخول الى الطريقة طابعا

---

[140] يتحدث ريج في كتابه مرارا حول هذا الموضوع. وكان قد التقى بعدد من البازاريين وتحدث معهم فعبروا كثيرا عما يعانونة من ضغط الاقطاعيين ورجال السلطة.

جماعيا بعد ان كان يتم بشكل فردي. حيث دخلتها عشائر منطقة نهري و عشيرة بارزان. وكانت الاولى تنتمي حتى ذاك الحين الى الطريقة القادرية. كما وانضم اليها ايضا عدد من شخصيات طويلة وبيارة (الواقعتين على الحدود العراقية – الايرانية الحالية). ولم يقتصر انتشارها على كردستان فقط، بل توزع خلفاء مولانا في تركيا، سوريا، فلسطين، العراق، داغستان، وبلدان اخرى. وبلغ عدد خلفائه الاكراد 34 وغير الاكراد 33 خليفة[141]. كان ينتمي الى مشيخة مولانا خالد في عام 1820، حسب ريج، 12000 مريد في البلدان العربية والتركية[142]. ويقدر عباس العزاوي مريديه في جميع البلدان، وفي نفس الوقت، بـ 20000[143]. هذا عدد ضخم اذا ماقارنناه بعدد مريدي طرق صوفية اخرى عاشت في البلدان الاسلامية قرونا عديدة قبل القرن التاسع عشر.

---

[141] ملا عبدالكريم المدرس، *المصدر السابق*، ص 83-86.

[142] ريج، *المصدر السابق*، ص 141.

[143] عباس العزاوي، *المصدر السابق*، ص 719. واضح ان الفرق بين الرقمين كبير جدا. وان النظرة الاولى تدفعنا الى تصديق ما ذكره ريج لوجوده في كردستان في عام 1820 في حين عاش العزاوي في القرن العشرين. الا ان نقطتان تدفعنا الى الاعتقاد بان الرقم المقدم من قبل العزاوي لا يخلو من الصحة. 1. يذكر ريج البلدان العربية والتركية فقط، في حين كان لمولانا خالد اعدادا كبيرة من المريدين في داغستان، افغانستان، باكستان، الهند، الامبراطورية الفارسية...الخ. 2. رغم ان العزاوي لم يذكر المصدر الذي استند عليه في ذكر هذا الرقم، وهذا ديدنه في الكثير من الاحيان، الا انه كان من المطلعين جدا على المخطوطات، وربما لم

ويضاف الى المريدين الذين كانوا يمارسون طقوس الذكر والعبادة على الطريقة النقشبندية، اولئك الذين لا يمارسون الطريقة وانما يظهرون الانتساب اليها والى شيخه ويسمون بالمنسوبين. ولم يكن عدد هؤلاء، كما يبدو قليلا وهم عادة من رجال الدين.

بلغ نفوذ مولانا عند قسم من الاكراد حدا قارنوه بعبد القادر الكيلاني، واعتبروا كلامه حديثا نبويا او ذي مصدر الهي[144]. وكان الامراء البابانيون، في فترة محاولتهم لاستيعابه يقفون امامه ليملؤوا غليونه وهو جالس. وبلغ الامر بمولانا خالد أن ينظر في المشاكل السياسية التي كانت تحدث بين أفراد العائلة الحاكمة في الامارة. وقد بنى له الامير الباباني محمود باشا في عام 1816 جامعا لا يزال معروفا حتى يومنا هذا باسم "خانقاي مولانا".

كان الاسلوب التنظيمي للطريقة النقشبندية اقوى واحسن منها لدى الطريقة القادرية. لم يكن القبول فيها يتم الا بشروط. والارتقاء في المراتب الهرمية ما كان يحظى بها كل مريد. اذ كانت الشروط الواجب توفرها في المريد للوصول الى مرتبة الخليفة قاسية، ولا يتم الا بموافقة مولانا خالد نفسه. وكان المريد المتقدم يقود المبتدئين. وهؤلاء يقودهم

يجد، وقت كتابة مقالته حول مولانا خالد، حاجة الى الاشارة الى المصدر، كما كانت العادة في الكتابة آنذاك، او انه نسي ذلك.

[144] ليس هذا بجديد في تاريخ الحركات الدينية الاسلامية. الامثلة كثيرة جدا على اضفاء هذه الصفات والقدرات على مؤسس الحركة او الجماعة.

خليفة في الاذكار. ويتم الذكر مرتين في الاسبوع. وكان على المريدين ان لا يعاشروا من يعادي الطريقة، وعليهم ان يعيشوا معا اذا كانوا بعيدين عن اهلهم.

ونظم مولانا طريقته حسب التوزيع العشائري في خارج المدن. فكان له خلفاء يمثلونه ويتحدثون باسمه لدى العشائر. اما في المدن و خارج كردستان فكان التنظيم مدينيا لا يعتمد التنظيم العشائري اساسا له. واذا تجاوز خليفة الاوامر، يصدر بحقه من المركز العام، السليمانية، تنبيه او انذار يوزع على جميع النقشبنديين واذا تكرر الامر فانه يطرد من الطريقة. وهذا بالضبط ما حدث لخليفة مولانا في قسطنطينية وبلاد ما وراء النهر. وكانت مركزية السلطة واحدة من أكبر اهداف مولانا، وقد استطاع ان يحافظ عليها حتى موته في عام 1827. ومنذ هذا التاريخ اخذت التيارات و مراكز القوى في الطريقة تتجسد شيئا فشيئا.

ان اكثر من حاول تقديم تفسير علمي لهذا الانتشار السريع للنقشبندية في كردستان هو الباحث الهولندي مارتن فان برونسن الذي يعيد السبب الى الطابع المتميز للنقشبندية عن القادرية الواسعة الانتشار بين الاكراد. و كذلك الى الوضع الاجتماعي/ السياسي لكردستان اوائل القرن التاسع عشر. حيث يذكر بالنسبة للنقطة الاولى كون الجانب الروحي عند النقشبندية اكثر أصالة مقارنة بالقادرية وفيها دقة في الضبط والتنظيم تفتقدها القادرية وتفوق علاقتها الهرمية

الداخلية درجتها ما عند القادريين[145]. ويرى فيما يتعلق بالسبب للطابع الثاني: "بان كردستان كانت تعيش فترة انتفاضات معادية للعثمانيين وكان ضغط المصالح الامبريالية يزحف نحو المنطقة فكان طبيعيا ان تنتشر طريقة يقودها شيوخ معادون للمسيحية والاجانب"[146]. الادلة كثيرة حول عداء شيوخ النقشبندية للعثمانيين، وما دخول العشائر فيها الا بسبب الخطر الآتي على سلطتهم و علاقاتهم الاجتماعية/ الاقتصادية من قبل الباب العالي. والسلطان نفسه اعلن تخوفه من "طموحات" الشيخ خالد الذي قد يكون، حسب تصوره، "مدعوما من الانكليز اما ان يكون احد الاسباب الرئيسية في نجاح الحركة معاداتها للمسيحية والاجانب فيبدو لنا هذا تفسيرا يصعب الدفاع عنه. فالمنطقة التي انتشرت فيها النقشبندية لم تكن قد تعرضت بعدُ للموجات التبشيرية المسيحية. فالسليمانية مثلا، لم تكن فيها كنيسة وكان عدد اليهود فيها اضعاف عدد المسيحيين. ثم ان الحركة كانت تجمع المعارضين للحكومة البابانية ولشيوخ القادرية و كذلك المعارضين للحكم العثماني واساليبه. وقد اظهر ريج في كتابه تعاطفا واضحا مع مولانا خالد الذي

---

[145] M. van Bruinessen, *Agha, Shaikh and State: on the Scoial and Political Organisation of Kurdistan*, Amesterdam, 1978, p. 284-285.

(أغا، شيخ والدولة: حول التنظيم الاجتماعي والسياسي في كردستان)

[146] *نفس المصدر*، ص 288-289.

اتهم فيما بعد، دون دليل ملموس، بالتعامل مع شركة الهند– الشرقية. كيف يمكن القول اذا بان الحركة كانت معادية للمسيخيين والاجانب؟ اذا كان المقصود بالاجانب هو العثمانيين فهذه مسالة صحيحة، ولكن المؤلف يتعدى ذلك المقصد وهذا امر يصعب اثباته استنادا الى الادلة التي ذكرناها والى التطورات اللاحقة للطريقة النقشبندية.

ان هذا النجاح الواسع يعود برأينا، اضافة الى الاسباب التي اتفقنا عليها مع مارتن فان بروينسن، الى الوضع السياسي– الاجتماعي في السليمانية نفسها آنذاك، اي صراع البازاريين مع السلطة التقليدية: السياسية والدينية/ الاجتماعية، والى حاجة عدد من العشائر الى التجمع دفاعا عن تنظيماتها المهددة. اذ دعموا روابطهم العشيرية بروابط طريقية– صوفية، اذا جاز لنا التعبير هكذا. ثم الوضع النفسي السيء الذي كان يعيشه سكان كردستان خاصة والبلدان العثمانية عامة بسبب الحروب الداخلية والخارجية المستمرة، حيث قدمت النقشبندية، في اذكارها واجوائها الداخلية المغلقة، راحة نفسية وذهنية يفتقر اليها الواقع، كما تفتقر اليها الطريقة القادرية. وكانت للشخصية القوية لشيخ الطريقة ايضا دور مهم في انتشار الطريقة. وقد ساهمت المعارضة "الدينية" التي تعرضت لها النقشبندية في شعبيتها وخاصة على نطاق كردستان والعراق.

الصراع بين الطريقتين

اكثر ما هدده الواقعُ الجديد هو، بلا شك، نفوذ الطريقة القديمة، القادرية، القوة الدينية التي لم يكن لها منافس لا في امارة بابان ولا في كردستان كلها. هنا، لابد من كلمات سريعة حول الطريقة القادرية.

تعود جذور القادرية الى القرن الثالث عشر حينما اخذ الشيخ عبدالعزيز، ابن مؤسسها الشيخ عبدالقادر الكيلاني (1077-1166)، بنشر الطريقة في كردستان. واستطاعت خلال قرون أن تغدو اكبر طريقة بين الاكراد الذين لم يكن الا القليل منهم يعرف طرق صوفية اخرى. وكانت السليمانية في اوائل القرن التاسع عشر واحدة من مراكزها الرئيسية حيث يسكنها الشيخ معروف النودهي (1752-1838) الوارث عن ابيه مشيخة القادرية وامام اكبر جوامع امارة بابان وكذلك قطب من أقطاب عشيرة برزنجة. وكان الشيخ معروف المرجع الديني الاعلى في الامارة حتى ظهور النقشبندية.

كان طبييعيا اذن ان يعادي الشيخ معروف شيخ النقشبندية عداءا لم ينتهي الا بفرار هذا الاخير من السليمانية وانتهاء منافسته لسلطة الاول في المدينة. منذ عام 1811 اخذ الشيخ معروف مع اعوانه في الطريقة القادرية، وبدعم حكومة عبدالرحمن باشا البابانى، ينشرون بين الناس شائعات تتهم مولانا خالد بالكفر وتنسب اليه ادعاء الولاية الكبرى وتغليف اغراض سياسية بمظاهر دينية. وحينما دفع الاضطهاد المباشر من قبل الباشا مولانا الى الهرب من السليمانية

والالتجاء الى بغداد في نفس العام، ارسل الشيخ معروف رسالة الى والي بغداد سماها "تحرير الخطاب في الرد على خالد الكذاب" يطلب فيها "اهانة خالد الكذاب الكافر وطرده من بغداد". رفض الوالي طلبه هذا بلا شك. ويبدو ان الشيخ معروف أتلف الرسالة بنفسه فيما بعد ولم يبق لنا منها غير مقتطفات قليلة[147]. وحينما عاد مولانا الى السليمانية في عام 1813 بعد موت الباشا الذي طرده، اخذ الصراع بين الطريقتين طابعا يوميا في المدينة. وكانت سياسة الشيخ معروف يعتمد على تعبئة جميع انصاره معه والعمل على رفع الصراع الى المستوى العثماني بدل حصره في النطاق الكردي فقط.

فدفع عثمان الجليلي الموصلي الى تأليف كتاب "دين الله الغالب على كل منكر مبتدع كاذب" ويقصد به مولانا خالد. فرد عليه مفتي العراق محمد امين السويدي، بطلب من والي بغداد (وليس من مولانا خالد) بكتاب اسمه "السهم الصائب في من سمى الصالح بالمبتدع الكاذب". ولم يواجه مولانا هذه السياسة بنفسه مباشرة، بل ترك المسألة لأعوانه ومؤازريه.

---

[147] بعد مناقشات طويلة وبحث مستمر من اناس معطلعين على هذا الامر، تكون لدي مع مرور الزمن نوع من اليقين بان هذه الرسالة مازالت موجودة بين مخطوطات المكتبات الشخصية. الا ان اصحابها لا يحبذون نشرها دفعا لاثارة المشاكل، رغم مرور مايقرب من قرنين على كتابتها.

هكذا كتب عدد من الكتب والرسائل دفاعا عن مولانا او ضده. لقد لاحظنا في اكثر المخطوطات التي استطعنا قرائتها حول هذا الصراع بان الكاتب يهدف اما الى تكفير مولانا، باي وسيلة كانت، او الى رد التكفير عنه ونسب الديانة النقية الصافية اليه وتفسير ما يواجهه من عداء بالحسد الشخصي. والذي يبحث في هذه المؤلفات عن معلومات سوسيولوجية او تاريخية مفيدة يعود، مع الاسف، بيد فارغة واخرى فيها شذرات من الملاحظات قد تفيده هنا او هناك في فهمه العام للنزاع.

وحينما ادرك الشيخ معروف فشل كل المحاولات التي قام بها لابعاد الناس عن الطريقة الجديدة التجا الى وسيلة اخرى لتحقيق هذا الهدف. فقد ارسل رسالة الى احد الشيوخ الاكراد المشهورين، يحيى المزوري، يطلب فيها نجدته للتخلص من مولانا. هذا هو نص الرسالة التي تحتوي على الكثير من الادلة:

«من كافة علماء السليمانية الى علامة الدنيا على الاطلاق والدين، حجة المسلمين مولانا وشيخنا الشيخ يحيى المزوري العمادي متع الله تعالى المسلمين بطول حياته. اما بعد، فقد ظهر عندنا خالد وادعى الولاية الكبرى والارشاد بعد عودته من الهند الى هذه البلاد وهو رجل قد ترك العلوم بعد تحصيلها على وجه الكمال واختار سبيل الظلال ونحن قد عجزنا عن الزامه وافحامه فيجب عليكم ان تتوجهوا الى طرفنا

لافحامه ودفع ضلاله ومرامه والا فقد عم الضلال بين العباد وانتشر في البلاد وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته»[148]

تعترف هذه الرسالة بقدرات مولانا خالد في العلوم الاسلامية، وتبين كثرة من يتبعه وعدم قدرة القادريين على افحامه فكريا. لذلك يطلبون المساعدة ممن هو اقدر منهم على فعل ذلك. والرسالة تبين مدى خوف الشيخ معروف النودهي من الشعبية التي حصل عليها مولانا خالد. والاتهام الموجه اليه سهل في كتابته وقوله وهو لا يعتمد على أية حجة في هذه الرسالة. فاتهام شخص بادعاء الولاية الكبرى ليس بالجديد في الصراعات التاريخية الفقهية في العالم الاسلامي. والاغرب أن الرسالة تدعي كونها تعبر عن رأي كافة علماء السليمانية. الا أن الواقع هو أن جزءا من علماء هذه المدينة كانوا من المناصرين لمولانا خالد. لذا يمكن قراءة هذه الفقرة كمبالغة يراد منها اظهار خطورة القضية. الا انها تعبر عن خوف كاتبها مما يحدث في المدينة خاصة ضد سلطته الدينية والاجتماعية.

وحينما وصل الشيخ يحيى المزوري لرد مولانا على اعقابه توجه رأسا الى اللقاء به. استمر اللقاء عدة ساعات والمدينة في انتظار النتائج. بعد هذا اللقاء عرفت المدينة كلها بان الشيخ يحيى اعلن بعد المقابلة انتسابه الى النقشبندية وقبوله بمولانا شيخا له رغم صغر سن

---

[148] ابراهيم فصيح البغدادي، *المصدر السابق* ، ص 41.

الاخير. ويذكر الكُتاب اساطير كثيرة حول هذا اللقاء. يبدو ان تغيير موقف الشيخ يحيى يعود الى سببين: الاول شخصية مولانا و معارفه الواسعة التي كان اكتشافها صدمة له، والثاني هو التناقض الذي تراءى له بين مضمون رسالة الشيخ معروف والواقع. وربما فهم المزوري أن المسألة هي قبل كل شيء خوف الشيخ معروف من أن يظهر في مدينة كان زعيمه الروحي والديني شاب اقوى منه فكريا واكثر تأثيرا في الناس.

بعد هذه الحادثة قرر القادريون قتل مولانا. فدبروا محاولة لاغتياله. تقرر ان يشترك فيها مائتان من اتباع معروف النودهي، جيء باغلبهم من القرى المحيطة بالمدينة. وكان المتفق عليه ان يقتلوه وقت خروجه من صلاة العصر. الا ان الحشد الواقف لتنفيذ العملية خارت عزيمته وتفرقت حينما رأته. هذه هي خلاصة القصة التي يرويها حول هذه المؤامرة كل من كتب دفاعا عن شيخ النقشبنديين، والتي لا تخلو تفاصيلها من بعض المبالغة. ولكن الحادثة اقرب الى الواقع والتصديق، خاصة وأن القضاء على الطريقة الجديدة ومؤسسها لم يكن بعيدا عن مصلحة السلطة البابانية. بعد هذا ارسل الشيخ معروف ابنه كاك احمدي شيخ وخليفته عبد الرحمن الطالباني لقتله. الا ان قوى الشخصين خارت عن تنفيذ العملية. فارسل ابنه مرة أخرى مع الشيخ

احمدي سردار فلم تنجح المحاولة[149]. وتتفق المصادر التاريخية على أن الشيخ احمدي سردار اصبح مريدا لمولانا خالد وخليفة له فيما بعد.

ترى ما الذي دفع بالشيخ معروف الى اتخاذ هذا الموقف؟ لا شك ان هناك دوافع شخصية تقف وراء موقفه. فلم يكن من المقبول لدى الشيخ معروف، ملاك الاراضي الواسعة، كبير عشيرة مهمة، شيخ اكبر الطرق في كردستان وصاحب المركز الديني الاول في امارة بابان ان ينافسه في سلطته الدينية/ الاجتماعية شخص ينحدر من عائلة متواضعة. كيف يرضى ان يدفع بطريقته الى المرتبة الثانية خلال سنوات قلائل؟ ثم انه كان محاطا بمجموعة من الاقطاعيين الذين كانوا، مثله، مهددين بتجمع اعدائهم البازاريين في المدينة حول مولانا. لم يكن الدافع الحقيقي لموقفهم الا خوفهم على سلتطهم وليس على الدين الاسلامي كما كانوا يدعون. وقد اثبت الشيخ معروف هذا بنفسه حينما طلب من مولانا ان يغفر له عما سبق، وذلك بعد ان هرب هذا الاخير للمرة الثانية والاخيرة من السليمانية في عام 1820، ولم يعد له نفوذ فعلي في المدينة وعادت سلطة القادريين عليها دون منافس فعلي بحجم قوتهم. وقد غفر مولانا للشيخ معروف مواقفه

---

[149] ريج، *المصدر السابق*، ص 303.

بعد ان وصفه بانه العالم الديني الكبير الذي اتبع الجهلاء في موقفه منه[150].

موقف البابانيين

لم يكن الحكام البابانيون متفرجين تجاه هذا الصراع المستمر في عاصمتهم. بل اتبعوا سياسة يمكن الوصول الى خطوطها العامة بملاحظة مواقفهم المختلفة خلال سنوات 1811-1820 وفيما بعد. ففي تلك الفترة حكم الامارة اميران: عبد الرحمن باشا وابنه محمود باشا. ولم تكن سياسة الاول تسمح بانتشار أية حركة اجتماعية او دينية في امارته اذا لم تخضع لسلطته. لذا لم يستطع مولانا خالد البقاء في السليمانية الا اشهرا قليلة بعد عودته من بغداد عام 1811. اذ اجبره عبدالرحمن باشا، حين رأى فيه خطرا على وحدة الامارة وامنه الداخلي، على الرحيل. واخذ يضطهد اتباعه في المدينة، كما يبدو ذلك من رسائل مولانا الى بعض البابانيين الذين لم يقطعوا اواصر الود أو العلاقة معه. بينما تميزت سياسة الابن، في اوائل حكمه، بمرونة اكثر ودبلوماسية اذكى في محاولة استيعاب شيخ الطريقة ومن ثم أتباعه. فما ان وصل الحكم حتى سافر الى بغداد لاعادة العلاقة مع الوالي بعد انقطاعها في الفترة الاخيرة من حكم ابيه. وترجى خلال هذه السفرة

---

[150] نص الرسالة منشورة في كتاب *يادى مهردان*، المصدر السابق، ص 396-398.

مولانـا العـودة الـى الـسليمانية فوافـق هـذا الاخيـر. واوقـف الباشـا علـى الجـامع الـذي بنـاه لمولانـا اراضـي زراعيـة وعـددا مـن البـساتين للـصرف علـى الطـلاب والمريدين. وقد نجحت هذه السياسة نوعا ما فابتعد عن مولانـا عدد من اتباعه وذلك لمعاداتهم لباشوات بابان. وكانـت سياسـة محمـود باشـا ذي حـدين: فمـن جهـة كـان يحـاول، جهـرا، اسـتيعاب النقشبنديين بكـل الوسـائل الممكنـة مـن مـال وجـاه وحريـة فـي النـشاط، وكان من جانب آخر يشجع، ضمنيا، اعدائهم على محاربتهم، ولا يعلق بحرف، كما يبدو، على محاولات اغتيالات شيخ النقشبنديين. وهذا ما دفع مولانا الى لوم الباشا عليه فيما بعد.

كـان التيـار القـوي فـي الحكومـة البابانيـة يعتبـر مولانـا مواليـا للعثمانيين. فهو اذن يشكل مـن هذا المنظـور خطـرا علـى الامـارة. وقد انعكست علاقة البابانيين مـع العثمانيين علـى النقشبنديين. ففي المرتين اللتين طرد فيهما مولانا من عاصمة الامارة كانت علاقات هذا التيار الموالي للدولة الفارسية متدهورة مع العثمانيين. وحين طلب محمود باشا من مولانا المقيم في بغداد او اللاجيء اليها، حسب مصطلح معاصر، أن يعود الى مسقط راسه في عام 1813 و عام 1822 كانت العلاقات بين الامارة الكردية والسلطة العثمانية تسير في اتجاه التهدأة والتحسن. يمكننا ان نتبين من الرسالة التي ارسلها مولانا الى والي بغداد المكانة التي وصل اليها بين البابانيين في بعض الفترات. وكانت علاقاته مع والـي بغـداد احـد الاسـباب التـي دفعـت بهـم الـى الاعتقـاد بـ "ميولـه

العثمانية"، كتب في احدى رسائله الي والي بغداد يقول: «استحضرنا امير امراء البابان محمود باشا وعمه عبدالله باشا واخاه عثمان بيك، مع القاضي ومعظم اكابر اعوانهم مجتمعين. بعدما كلفناهم واحدا بعد واحد منفردين فملأت بتأييده تعالى قلوبهم واذانهم من زاجر الوعظ وحُشيت جيوبهم واردانهم من جواهر اللفظ، حتى اجابوا وانقادوا، وانقلعوا عما ترسخ فيهم طول السنين واعتادوا. ثم عقدنا لهم حفلاً وشددنا عليهم، وسددنا عليهم طرق التورية وانذرناهم بالوعيد، وبذلنا المجهود في اتقان تحليف محمود باشا بالوجوه العديدة واخذنا المواثيق الاكيدة...»[151]. مواثيق اكيدة بعدم الاتصال بالفرس.

باءت جميع المحاولات البابانية لاستيعاب الحركة النقشبندية بالفشل. ولم يكن عكس ذلك ممكننا. فاكثر النقشبنديين ومنهم مولانا نفسه كانوا يعارضون طبيعة الحكم الباباني. وحينما تدهورت العلاقات البابانية– العثمانية ووصل الصراع القادري– النقشبندي حدا وجب على الباشا الباباني ان يتخذ موقفا من امر هذا الصراع اتخذه ضد النقشبندينن. كان كلوديوس جيمس ريج، ممثل شركة الهند الشرقية في العراق آنذاك في مدينة السليمانية يوم 20 تشرين الاول 1820. فكبت ما يلي:

[151] *نفس المصدر*، ص 354.

«هرب الشيخ الكبير هذا الصباح. ورغم مفاجاة وسرية هروبه نجح في يأخذ زوجاته الاربعة معه. لا نعرف بعد اي اتجاه اخذه. قبل ايام كان الاكراد يعتبرونه اكبر من عبدالقادر الكيلاني، وكان من عادة الباشا ان يقف امامه ويملأ غليونه. اليوم يقولون بأنه كافر ويذكرون العديد من الروايات حول عجرفته ومساوئه، وكيف انه فقد نفوذه بموت ابن الباشا اذ ادعى قدرته على انقاذ حياته. ان سبب هروبه يذكر باشكال مختلفة. يقول البعض بانه زرع الشقاق بين الباشا واخوانه، وان الباشا أراد ان يضعهم وجها لوجه. ويدعي البعض انه خطط لتأسيس مذهب جديد ليجعل من نفسه السيد الديني والدنيوي للبلاد. من المؤكد انهم اتهموا الشيخ خالد بما لم يقترفه. كان جميع العلماء والسادة، وعلى رأسهم الشيخ معروف، يكرهون الشيخ خالد الذي دفع بهم سابقا الى المرتبة الثانية»[152].

يختصر ريج عبر هذا الخبر المختصر وتعليقه عليه الكثير من جوانب الصراع التي ولدت في المدينة مع ولادة الطريقة الجديدة. لقد شكل هذا الهرب ضربة كبيرة للنقشبنديين في مدينة السليمانية، يمكن تسميته بـ "الهزيمة"، على الاقل بشكل مؤقت في مركز الصراع، مع أن الطريقة استمرت في أماكن أخرى وكسحت الطريقة القادرية بل

---

[152] ريج، *المصدر السابق*، ص 321-322.

انهتها كاملة في بعض المناطق. لقد تركت هذه الهزيمة الساحة تماما للقادريين في السليمانية.

الموقف العثماني

بنى العثمانيون سياستهم تجاه النقشبندية على اساسين: 1. دور الحركة داخل الامارة البابانية. 2. نفوذها في مجموع الاراضي العثمانية. ففي بداية ظهورها دخلها والي بغداد سعيد باشا و خلفه داود باشا. وكان الهدف من ذلك هو استيعاب الحركة والاستفادة منها في اضعاف الامارة البابانية. وحينما اظهر السلطان العثماني في عام 1818 لوالي بغداد مخاوفه من الاهداف السياسية لمولانا خالد، طمأنه الوالي عليه. ثم دخل الطريقة شيخ الاسلام زكي زادة مصطفى عاصم. وكانت سياسة بغداد العثمانية تدعم الطريقة في كردستان وتفسح مجال العمل امامها في المناطق الاخرى مادامت تفيد في شق الامارة واضعافها. ولكن ما أن انتهى هذا الدور حتى تغيرت السياسة العثمانية من دعم الى اضطهاد وقمع. فلم يعد هناك مبرر لدعمها السابق. وحينما هرب مولانا نهائيا الى بغداد في عام 1820، اخذ مريده السابق داود باشا يضيق عليه حتى اجبره على ترك بغداد والهجرة نهائيا الى الشام. ولم يتوقف تعقبه من قبل العثمانيين هنا. بل ارسل السلطان شخصين لمراقبة نشاطاته هناك. وما لبث ان اصدرت السلطات

العثمانية في 1826 فرمانا يأمر فيه المسؤولين بمنع نشاطات خلفاء مولانا خالد. وبعد اشهر من وفاة هذا الاخير في 7 حزيران 1827 القي القبض على جميع خلفائه في استنبول وتم نفيهم الى بغداد والسليمانية. ولم يكن نفيهم الى العاصمة البابانية خاليا من مقاصد سياسية بل كانت تهدف الى اعادة المشاكل النقشبندية الى هذه الامارة نفسها.

الخلاصة

حرص كُتّاب النقشبندية وشيوخها على لبس تجمعهم رداءا دينيا صرفا. غير ان الواقع كان ولا يزال، لسوء حظ هؤلاء، يدل على وجود جوانب اخرى، غير التوجه الروحي الصرف الى الله، في كل تجمع نقشبندي، شانها في ذلك شأن كل التجمعات الصوفية الاخرى. ان قرنا ونصف من تاريخ النقشبندي الكردي لا يمكنه الا ان يقر بهذا الواقع.

نخرج من كتابات مولانا خالد ورسائله وسيرة حياته بصورة المصلح الذي كان يرى في الواقع الاجتماعي والسياسي والديني انحرافا، كميا ونوعيا، عن "الاسلام الاصيل" الذي عاشه محمد وصحابته الاولون. فالاصلاحات كانت من ضرورات تغيير احوال المسلمين الروحية والاجتماعية التي فسدت، برأيه، لان ملوكهم فسدوا. لذا منع خلفائه، دون نفسه، من معاشرة رجال السلطة وتبعة الطرق الاخرى. وقد وضع سبعة شروط لكل خليفة يمثله في القسطنطينية، بؤرة الفساد السياسي والاخلاقي، كما كان يتصور. كانت طموحاته الاجتماعية/

السياسية، الغير معلنة تتعدى حدود كردستان. لذا بث خلفاءه النشيطون في اكثر البلدان الاسلامية العثمانية. وعقد مولانا زواجين كان الغرض السياسي فيها واضحا. فبالاضافة الى زوجته الاولى التي كانت تنتسب الى عشيرته الكثيرة العدد، الجاف، تزوج بأمرأة بغدادية تنتمي الى واحدة من عوائلها المشهورة، واخرى فلسطينية، من عائلة غزية متنفذة. اما الزوجة الرابعة التي يذكرها ريج فلا يعرف المؤرخون عنها شيئا.

كان مولانا يمثل الاتجاه الاصلاحي في الحركة النقشبندية في اوائل القرن التاسع عشر. وتجسد هذا الاتجاه بشكل واضح بعد موته بعقدين في شيوخ منطقة هورامان. وكان هناك اتجاه اخر في الطريقة اكثر "حركية"[153] يمثلها البازاريون وعدد من خلفائه. ففي العديد من رسائله نستكشف ان بعضا من اتباعه كانوا يبثون فكرة المواجهة العنيفة مع السلطة البابانية وشيوخ القادرية، بينما يحاول هو اقناعهم بتغيير

---

[153] تعارف عدد من دارسي النقشبندية على ان يطلقوا اسم الاتجاه الثقافي على شيوخ هورامان والاتجاه الثوري على شيوخ نهري و بارزان. يبدو لنا ان الكلمتين لا تنطبقان تماما على مواصفاتهما. نقشبندية هورامان و خاصة منذ مطلع القرن العشرين فقد الكثير من طابعها "الثقافي" ليحل محلها "الطابع الروتيني الناقص" وقد تعدى شيوخ هذا الاتجاه الكثير من اسس هذه الطريقة لاسباب يضيق مجال البحث عنها. لذا فضلنا ان نطلق عليه اسم الاتجاه "التعليمي" او "الاصلاحي". أما استعمال مصطلح "الاتجاه الثوري" فلايبدو لنا ملائما لصعوبة توافق المفهوم العام للثورة وواقع هذه الحركات. لذا اثرنا استعمال "الاتجاه الحركي".

رأيهم. وحينما سانده البازاريون كانوا يأملون بذلك تحقيق اغراضهم الخاصة المعادية للسلطة السياسية والدينية/ الاجتماعية في امارة بابان. الا ان بعضهم ابتعدوا عنه في سنواته الاخيرة بدافع من خيبة الامل. وتجسد هذا الاتجاه الحركي بعد نصف قرن عند شيوخ نهري وبارزان. فالشيخ عبيد الله النهري، قائد انتفاضة 1880 والشيخ سعيد بيران، قائد انتفاضة 1925، والملا مصطفى البرزاني، قائد الحركة الكردية في العراق من عام 1961 حتى عام 1975، كانوا من شيوخ الطريقة النقشبندية. لقد مات مولانا شابا وكانت ظروف حركته صعبة جدا. ربما جاءت قبل أوانها. ولاشيء يمنعنا من التفكير بأنه ربما كان يقود التيار الثاني في حركته لو تطورت الاحداث بهذا الاتجاه، كما حدث فيما بعد. يعبر ظهور الطريقة النقشبندية في كردستان عن حركة مدينية بدائية ضد سيطرة الريف الكردي على مدينة السليمانية، وكذلك عن حاجة قسم الكبير من المجتمع الكردي الى سلطة سياسية غير سلطة الامراء والاقطاعيين الاكراد وسلطة دينية/ اجتماعية غير القادرية ويعبر كذلك عن معادات للسلطة العثمانية ايضا. واذا لم تنجح كحركة مدينية فذلك لان المدينة الكردية لم تكن قد وصلت بعد ذلك الى مستوى يمكنها منافسة الريف وشبكة علاقاتها. كانت هذه الحركة، حسب معلوماتنا، اول حركة ذات ابعاد مدينية في كردستان. وقد ساهمت كعامل ديني واجتماعي في تضعيف سلطة الامراء. فلأول مرة في تاريخ الامارات الكردية يطرد اميرٌ شيخا كبيرا من امارته بهذا الشكل.

واستطاعت النقشبندية ان تستولي على الكثير من مناطق نفوذ القادرية حتى لم تعد تنافسها عددا ايضا. ولم يحدث قبل ذلك التاريخ في كردستان نزاع "ديني" بحجم و مستوى النزاع القادري- النقشبندي، والذي ما زالت انعاكاساته واضحة في علاقات الطريقتين حتى يومنا هذا. ومن الاسباب التي حالت أيضا دون ان تستطيع النقشبندية ترجمة البعض من اهدافها الآنية على النطاق العثماني الى الواقع يمكننا ان ندرج سياسية تقوية المركز التي اتبعها السلطان محمود الثاني والتي انتهت بضرب الطرق الصوفية واحدة تلو الاخرى، كما ضربت استقلالية سلطة الامارات.

الشعر الغنائي الكردي[154]

باسيل نيكيتين[155]

---

[154] العنوان والمصدر الفرنسي: Basil Nikitine, "La Poésie Lyrique Kurd", *L Ethnographie*, paris. Serie 1947-1950, n° 45. لاشك ان بعضا من الاراء الواردة في هذه المقالة لا تنطبق اليوم على حاضر المجتمع الكردي. ربما كان من المفيد ان نبحث فيها. غير اننا توخينا اثقال النص بملاحظات هاشمية على جوهر الموضوع، الا قليلا. كما تجاوزنا ترجمة بعض الهوامش التي تتعلق باستعمال بعض الكلمات في الفرنسية او التي تتوجه الى معلومات القارىء الفرنسي. نشرت هذه الترجمة للمرة الاولى في مجلة *Studia kurdica*, n° 2, Paris, 1985. (هـ. م.)

[155] ولد باسيل نيكيتين في مدينة سوزنو فيتزي البولونية عام 1885 من عائلة لم يكن فيها من يهتم بالشرق ليحبب اليه الاهتمام بهذا الجزء من العالم. اخذ اهتمامه به يتغذى من قراءات فترة الشباب ومن مناقشاته الطويلة من استاذ فرنسي جال اغلب بلدان آسيا. في عام 1904 دخل معهد لازاريف بموسكو لدراسة العربية والفارسية والتركية. شغل من 1909 وحتى 1918 عددا من الوظائف في القنصليات الروسية في ايران. كان آخرها في اعوام (1916-1918) كنائب للقنصل الروسي في اورمية (رضائية). بعد اشهر من ثورة اكتوبر رفض باسيل نيكيتين العودة الى سانت بطرسبورك -كما طلبت منه وزارة الخارجية- واختار

أكثر ما يدهشنا ونحن ندرس الادب الكردي هو، حسب تعبير احد المستشرقين السوفييت[156]، هذا النوع من «غزارة الفولكلور» التي تعود، كما يقول، الى الانتشار الواسع للامية بين هذا الشعب. هذه الامية تصل في بعض الحالات، عند اليزيدين على سبيل المثال، الى حد فرضها على الجامعة كقاعدة دينية للطائفة، ويغدو التعليم امتيازا تتمتع به فئة واحدة من بينهم[157]

الهجرة الى بلد زوجته، فرنسا. حيث اشغل خلال 28 عاما عدة وظائف في قسم الدراسات الاقتصادية لدى البنك الفرنسي للتجارة الخارجية. اضافة الى كتابه القيم، الاكراد – دراسة تاريخية واجتماعية، باريس 1956، والذي عانى من ترجمة بل مجزرة دار الروائع ببيروت، واكثر من ثلاثين مقالة ودراسات حول الاكراد، نشرت باللغات الفرنسية والانكليزية والروسية. كتب باسيل نيكيتين مجموعة غنية من الكتب والمقالات حول شعوب آسيا الصغرى والوسطى. لايزال عدد من كتبه بعيدا عن المطابع والنشر منها كتابه: *ايران الذي رأيته*. أما ترجمته الفرنسية لقصة *الراعي الكردي* لعربي شمو فقد ظهر في عام 1989. (هـ. م.)

[156] يقصد باسيل نيكيتين المستشرق و. فيلتاشفسكي O. Viltachevski. (هـ. م.)

[157] لا يمكن اليوم، فيما يخص اليزيديين، تطبيق هذه القاعدة عليهم. فمثلا في بلدان الاتحاد السوفييتي السابق حيث بلغ عدد الاكراد الساكنين هناك، حسب احصائيات 1970 حوالي 278 الف شخص. وتتعدى نسبة اليزيديين من بين هؤلاء 25%. ومنذ الثلاثينات من هذا القرن اخذت الامية تختفي بينهم. حتى نستطيع

لو بحثنا في الجانب الاسلامي للاكراد لادركنا بان المدارس كانت دائما كثيرة العدد في كردستان. الا ان هذه المؤسسات التعليمية كانت وما زالت، بالنسبة للكثير من الناس. مدارس مذهبية تعلم التلاميذ قواعد الدين الاسلامي. ويتم التعليم فيها بالعربية- لاتينية الاسلام- وليس بالكردية. فحفظ عدة جمل بهذه اللغة الطقوسية يظهر صاحبه كمطلع وسيع. وقد اختلط في ذهن اكراد تركيا الجامع بالمدرسة[158].

يبدو ان اكراد ايران يدركون اكثر مكانة لغتهم كما يدل على ذلك، ضمن الدلائل الاخرى، ما ذكره احد المندوبين الاكراد في برلمان طهران: «لو اختفت الفارسية لاستطعنا اعادة بنائها باللجوء الى النطق الايراني النقي الذي هو الكردية»[159].

الحديث عن انقراض هذه الظاهرة بينهم في وقتنا الحاظر. اما بالنسبة لليزيديون في كردستان والحالة تختلف تماما. فالامية ما زالت منتشرة بينهم كما هي منتشرة بين المكونات الاخرى لهذا المجتمع. (هـ. م.)

[158] لم تعد هذه الملاحظة صحيحة اليوم. فهي تعود الى زمن كانت فيه المدارس الدينية اكثر من مدارس الدولة. اليوم تغيرت المقاييس والنسب. فمدارس الدولة منتشرة في كل مكان. ومعرفة الاكراد بلغتهم ازدادت كثيرا، خاصة بين اكراد العراق. ووصل الامر الى تراجع معرفة اللغة العربية بينهم. ثم ان المدارس الكردية في العراق اصبحت رسمية، كما اصبحت اللغة الكردية لغة رسمية حسب الدستور في هذا البلد. ويتطور الاعتراف باللغة الكردية حتى في تركيا. (هـ. م.)

[159] تعود هذه الجملة الى احد المندوبين الاكراد في مجلس النواب الايراني قالها في عشرينيات القرن العشرين، في الفترة التي كان الايرانيون منشغلين فيما يخص

ولا يمكننا الحديث عن الكردية كلغة تعليم الا فيما يخص العراق وارمينيا السوفيتية حيث تتمتع الاقلية الكردية بنوع من الاستقلال الثقافي. فاعتمادا على بعض المعطيات اللامتكاملة، توجد في العراق 26 مدرسة ابتدائية ومدرسة ثانوية واحدة تضم 1471 طالبا، اي ما يقل عن 2% من السكان الاكراد لالوية السليمانية، كركوك واربيل. ويضاف الى هذا العدد بضع عشرات من الطلاب الاكراد الذين يدرسون في المدارس التعليمية العالية في بغداد. في ارمينيا، وفي الزمن النفسه، كان السكان الاكراد، الذين يشكل عددهم ثُمن عددهم في العراق، يملكون 41 مدرسة ابتدائية تضم 1419 تلميذا، اي ما يقارب نفس العدد في العراق، وتوجد ايضا مدرية متوسطة ذات سبعة صفوف ومعهد كردي للمعلمين في يريفان، كان يضم 161 طالبا في عام 1934. و تتجاوز الكتب والقرطاسيات أيضا اضعاف ما يوجد منها في العراق[160].

لغتهم بمسألة كثرة الكلمات العربية فيها. ورغم ذلك فان ملاحظة المندوب الكردي اقرب للمزاح منها الى الحقيقة. (هـ. م.)

[160] تسير الدراسة باللغة الكردية في العراق منذ الحرب العالمية الاولى في خط بياني صاعد رغم الضربات القاسية التي تلقتها من لدن الحكومات العراقية المتعاقبة. وارتبطت دائما في ازدهارها ونكوصها بعلاقة القوة بين الحكومة العراقية والحركة القومية الكردية. فبقوة هذه الخيرة تزدهر الدراسة الكردية والعكس صحيح. كان اوج ازدهارها في سنوات 1970-1974 حيث أُجبرت الحكومة العراقية على

اذن ليس هناك ما يبعث على الاندهاش اذا اقتصرت اللغة الكردية على الادب الشفهي الذي يقدم البرهان الساطع على حيويته الدائمة[161]. ان المتشرق المار ذكره يضفي على هذا الابداع الشفهي

قبول شروط الحركة القومية الكردية. من ضمنها الشروط الثقافية. اذ دخلت الكردية لاول مرة في مدارس مدن كردية لم تكن تعرف حتى ذلك الحين غير الدراسة باللغة العربية. وبعد انهيار الحركة في 1975 عادت الحكومة الى تضييق الخناق على الدراسة الكردية فالغتها من العديد من المدن مثل كركوك، كفري، خانقين... الخ. ونقلت جامعة السليمانية من المدينة، بعد ان افرغتها من طابعها الكردي، رغم ان الدراسة فيها لم تكن باللغة الكردية، يستثنى من ذلك القسم الكردي. ولم تشمل هذه السياسة الدراسة الكردية فقط بل تعدتها الى جميع جوانب الثقافة الكردية. فقد وضعت حدا للاستقلالية النوعية للمجمع العلمي الكردي والحقته كهيئة بالمجمع العلمي العراقي والغت في السنوات الاخيرة اتحاد الادباء الاكراد. أما اكراد تركيا و سوريا فانهم غير معترف بوجودهم رسميا. فلا يملكون اية حرية في التعبير بلغتهم الام في حين تعترف ايران وفي الدستور بوجود "قوم كردي" غير ان الدراسة بالكردية معدومة رغم وجود حرية محددة في نشر الكتب. منذ الثمانينات من القرن الماضي اخذت المسائل المتعلقة باللغة الكردية تتكور بشكل سريع. فاذا توقف فيما يتعلق باكراد ايران فانها اخذت اتجاها آخر بالنسبة لاكراد العراق وتركيا واخيرا سوريا. (هـ. م.)

[161] خطى الادب الكردي اليوم خطوات مهمة ولم يعد يقتصر على الادب الشفهي فقط، فهناك عدد كبير من الادباء والكتاب، مقارنة بظروف هذا الشعب وبالنسبة للمتعلمين فيه. الا ان القليل منهم وصلت نتاجاتهم الى خارج كردستان. (هـ. م.)

الشعبي ميزة طبقية. كان الفلكلور، حسب رأيه، اداة يستخدمها الاقطاعيون لممارسة نفوذهم على الرعاة والمزارعين الاكراد. بالتأكيد لا يمكننا انكار وجود الكثير من الاثار الفلكلورية الكردية التي تمجد مآثر الرؤساء الحربية، ولكن بشكل عام، يبدو ان زميلنا لا يولي اهتماما الا بقسم من الفولكلور ويحدد موضوعه بتعمد. يجب الا ننسى ايضا بان البنية الاقطاعية في كردستان هي التي حافظت، عبر تقلبات الزمن، على شخصيتها، وفيما يتعلق الامر بالاسلوب يجب تكريس دراسة مكثفة له كي يمكن الحديث بثقة عما يميز لغة الطبقة الحاكمة عن اللغة الشعبية.

ان الفولكلور الكردي الذي يتناول موضوعات متنوعة جدا يعرف، الى جانب الاغاني والاشعار الملحمية المدروسة كثيرا، حشدا من الاثار العفوية والاندفاعية، كنتاج العرق الشعبي الاكثر اصالة.

غايتنا هنا تقديم نماذج من هذا النوع "الغنائي" للقارئ مع التذكير براي ج. بيريير الذي يرى بان الابداعية الغنائية هي تلك التي تبقى في مأمن اكثر من المؤثرات الاجنبية و تحافظ على صفتها الاصيلة.

* * *

بعد تقديم هذه الملاحظات التي لا تخلو من فائدة لندخل في قلب الموضوع. هذا عدد من اللاوك[162]، كما يسمى الاكراد هذه الاشعار القصار من مجموعتي.

الاول يروي حروب الاخوين بشار جتو و جميل، من عشيرة كيلان، في اطراف موش، والذين كانا يحاربان الاتراك.

«دهوي يوي هو يوي[163]، اخوان! نحن في الحرب. انا بشار، بشار الاشقر. انا لا استطيع الاستمرار في العيش مع الحكومة التركية، مع هذه الحيل والخيانات. ليكن في علم روحي وجسدي: لن اطلق النار على الجنود البسطاء. انهم ليسوا الا اطفال الدولة. ما يقومون به ليس الا تنفيذا للاوامر. سوف اصوّب على القائمقام، البنباشي (العقيد)، اللاوزباشي (المقدم)، الملازم (النقيب). اعلن التمرد من داخل قلعتي المنيعة، كنمر رابض خلف صخرة، ديهاي دياهاي. الشر يهبط على البشر مرة كل ثلاثة ايام. جميل ينادي ثلاث مرات: بشار اخي،

---

[162] اللاوك نوع من الاغاني الكردية المعروفة، تروي عادة وبصورة مفصلة نوعا ما قصة واقعية باسلوب شعري رقيق قد تكون القصة على شكل حوار بين شخصين او اكثر. لايزال هذا الغناء كثير الانتشار في كردستان. (هـ. م.)

[163] ترنيمة تعبر عن الالم تتردد في العديد من الاغاني الكردية. وهي تتكرر، كما نرى كثيرا في هذه النصوص. اما الترنيمات الاخرى فلها نفس المعنى تقريبا وتؤدي الوظيفة الغنائية ذاتها.

انهض، علينا ان نحقق بطولة تخلد اسمنا في العالم. دي هواي هوي! اخوان نحن في حرب».

جميل ينادي بشارا: «اخي، انت تدري بان الشيخ قدم الى بيتنا يوم الجمعة[164]. امسك الاينلي[165] جيدا، لاتخلع الموزر[166] من كتفك. لا تصوب على الجنود، انهم اطفال الدولة، حدق فيمن له سيف على جنبه وحمالته مطرزة بالذهب او الفضة، هؤلاء اطرحهم ارضا. ديهاي بيما هاي».

«قلعة بشار جتو المنيعة قريبة من الينبوع. بشار يصرخ عاليا وينادي جميلا: انهض ارم جيدا بالاينلي. وليكن معلوما، قسما بروحي وبجسدي لن اذوق خبز الجبناء مادمت حيا، دي هواي هوي».

هذا النموذج من اللاوك يبين صفة الفروسية عند الاكراد. لقد عانوا كثيرا من قمع السلطات التركية بصفتهم اقلية محرومة من كل حق، وهم يرفضون ان يضعوا المسؤولية على عاتق الاتراك كشعب. انهم لا يكرهون الا الدولة. ويتناول لاوك أخر مشهدا حربيا يضع الاكراد في ماجهة الاتراك:

---

[164] اي ان بيتنا مبارك.

[165] نوع من الاسلحة التي كانت تسمى باسم مخترعيها.

[166] نوع من الاسلحة التي كانت تسمى باسم مخترعيها.

«ايها الامير! اندلعت الحرب وراء المسجد. صوت القتال يسمع خلف المسجد. (رجال) شيخان حملوا بنادقهم الالمانية[167] وتوجهوا نحو المزار. هيا اضربوا القبعات الحمر (الاتراك) قرب المقابر. سوف نقتل الجاوش (نائب ضابط)، الباشجاوش (المساعد)، الانباوشي (المراتب) والملازمين. سوف نحرق قبور ابي البوق واولئك الذين ينفخون فيه. منذ عهد عمر علي باشا لم نكن ندفع اية ضريبة لاية حكومة. فليرسلوا لنا شاعرا يزيد حماسة المحاربين».

انه وصف مكثف لاحدى المناوشات الكردية-التركية المعتادة والتي كانت تندلع بسبب جباية الضرائب من قبل السلطات. نلاحض في اللاوك تفصيلا جديرا بالاهتمام: الالتجاء الى الشاعر الذي يشجع حضوره المقاتلين. انه يروي لهم ابياتا من المآثر الاخرى، وربما يرتجل قصيدة يمجد فيها شجاعتهم.

* * *

وهذا لاوك اخر يدور حول مواجهة مع الفرس. انه قصة جعفر اغا الذي قتل حينما وقع في كمين في توريز (تبريز) حيث استدعاه ولي العهد[168] الى اجتماع هناك.

---

[167] كان الاكراد سابقا يبحثون عن هذه الاسلحة.

[168] توريز عاصمة اذربيجان، كان حاكمها العام خلال العهد القاجري هو ولي

«اه ايها الاغا الشاب، الساكن في جيري[169] الزاهي الالوان الواقع في شرق الوادي حيث يسير النهر في الاعماق. الطاعون يتنزه، فليسقط على بيت ولي عهد ايران. انه كتب رسالة الى والد كولزار (ابنة جعفر اغا): تعال الى بيتي. وبما ان جعفر اغا كان خلال السنتين الاخيرتين نصف امير فعليه ان يبقى هذه السنة على الارض العجمية (وهذا يعني انه لن ينتجع الى الجارة الكردية).

«ايها الاغا الشاب، (انت) كالمرساة في الارض (خلال المعركة)، شوكة في عيون الامراء، حقا انت باشا الصحراء.

«آه أيها الاغا الشاب، حتى السماء في العرش العالي تعادينا... رموا جسد والد بوزكو (ابن جعفر اغا) باطلاقتين. امتطى ريشان (اسم الجواد) ومد يده عبثا للمرة الثالثة الى قراب مسدسه ذي الطلقات الست. اغا ها بيما هاي.

«الزغاريد ترتفع من توريز. ... البشرى تسري بين سادة كربلاء. هيلا، ايها الاغا الشاب، يا والد بوزكو، (انت الذي) تعد من بين الفرسان اعظمهم. هيدي (زوجة جعفر اغا) تبكي.

العهد.

[169] محل اقامة الاغاوات عشيرة شكاك.

موتيبيري (زوجته الاخرى)، انهضي ايتها المسكينة، ضعي منديلا على ملابس والد بوزكو كي لا يتراكم عليها التراب.
«لم يظهر بعد تمر اغا واسماعيل اغا (عم واخ جعفر اغا). أمحتوم ان ينزل الشر كل ثلاثة ايام على هذا العالم السفلي؟ الامدادات لوالد بوزكو بعيدة. انها لن تصله. في توريز اللعينة تشتعل الاضواء. البشرى تسري بين سادة كربلاء...»

* * *

ومما يؤسف له ان الاكراد كرجال عشيرة، جبليين قساة، منعزلين، كل في واديه، لايحاربون فقط ضد الاتراك والفرس، وانما يمارسون قتالا مستمرا فيما بينهم ايضا على المراعي او على شرف العشيرة... الخ. ان اللاوك الذي تقراه الان يسرد احدى هذه المواجهات بين العشائر: قتال الاخوة فيما بينهم

«في ممر برنافا المتكلس والعاري كالضريح، انظر اليه، والد سوحلي (اسم فتاة) مدجج بالسلاح، ممتط حصانه العربي، مع (تجهيزاته الكاملة)، الدرع، السرج والقميص. جلال الدين ينادي فقي عبيد: عجل اذن، آن الاوان. هذا وقت عسير. لا تثق باوسحابكي زورو. انه متردد كابيه. الممر يسبح في الضباب. اصغ الى صوت الاينلي الذي يأز، كيز- كيز، على كتف الاخ عثمان... قاتل الرجال. هناك بركة في الممر. انظر -

باب الانسحاب هناك. انه وقت وصول التعزيزات من تل غيداي. والد سولحي علي الحصان العربي ونيسي يمتطي ميري. انها معا. ديهوي هوي».

نرى بان الاحصنة المشهورة في القبيلة تشارك في شهرة الرؤساء. لاوك آخر يقدم عبر حوار بين عاشقين، مشهدا للتشجيع على المعركة بين اكراد من عشيرتين متناحرتين.

الفتاة تنادي: «اه ياصديقي. اه ياجميلي، اقول لك: هناك ثلاثون فارسا قادمون من قرية بوبو في دير الزور. لا اعرف من هم. غير اني اظن احدهم الوزير حاجي. من بعيد يقترب بابي امين ومحمد علي الفارسان الشجعان».

فيرد العاشق: «اه سايدي (اسم الفتاة). اقسم الان بالله دون تردد. ان بندقية بابي امين جيدة، انها بكلج (مزودة من قبل الدولة). في الايام العصيبة تطلق مائة اطلاقة، ولا تقع واحدة منها على الارض (بل تصيب الهدف)، في حين بندقية حامي حاجي هي فلنكو من الصنع المحلي، اكلها الصدأ. فليحترق سيد البيت في الجحيم. في ايام الحروب الصعبة لا تستطيع هذه الفلنكو حتى ان ترمي ظرفا واحدا. هناك سلسلة من الجبال في سيرتا كولا. انهض وقلد سيفك، ثبت قدميك جيدا، ضع البندقية على كتفك، الامداد يزيد الحماس... ما من اطلاقة تطلق عبثا...».

هناك تضاف ميزة اخرى الى معرفتنا بالطبع القتالي لدى الكردي: الاهتمام الذي يوليه بسلاحه، انه يصف مميزاته وعيوبه باسلوب شعري.

* * *

بعد ان اعطينا فكرة حول الروح القتالية الكردية وكشفنا عن الدوافع الحربية التي تنعكس في اللاوك، لنعالج الان نوعا آخر من الاشعار التي تصور بشكل خلاب المشاعر الكردية. فلنصغ الى الحان اكثر رقة لغنائية حقيقية.

شاب يوجه الكلام لحبيبته: «طائشة! اسم معشوقتي لذيذ كالسكر، كالعصير. انت عزائي الوحيد اغلقُ نوافذ ذلك المعبد. اضعُ شفتاي على شامات الجيد. حتى صلاة الظهر لن اترك عزائي. لي امان، لي امان (الرحمة، الرحمة). تلطفي ايتها الطائشة! جزيكة (اسم فتاة) الرشيقة، ابنة نوبو اخذت عقلي قبل عام او اكثر. رشيقتي رقيقة كالبرعم. ناعمة وكثيرة الوعود. طرة شعرها تلامس الارض. سوف اوصي لحبيبتي القابعة في البيت بشراء زوج من الاحذية يكلف الواحد منها قطعتين من الذهب في سوق ماردين المحترقة. وحينما تدور

رقصة[170] في قريتنا، اضعها في رجل طائشة الحبيبة، بادية بين الجموع كلما ذهبت الى الرقص. لي امان، لي امان».

بقية هذا اللاوك يحوي جواب المعشوقة ورد العاشق وهو يودعها بزنار وزنه ستة وثلاثون درهما من الفضة...الخ.

هل من حاجة الى الشارة. فيما يتعلق بهذه القصيدة، بانها تثير جانبا غير منتظر من الحياة الكردية، رغم كونهم مسلمين، فهم يتركون حرية كبيرة لفتياتهم، ثم لنسائهم المتزوجات (اللاتي تصلن احيانا الى منصب رئيس القبيلة). الشباب يلتقون فيما بينهم بحرية، ويختلسون معا. والزواج يتم بالرضاء المتبادل.

في اللاوك الحواري الآتي نستشف بان الشعر الغنائي الكردي يبدو منطلقا جدا. المرأة متزوجة من رجل اكبر سنا منها.

«لي جاني. لي جاني (آه ايتها الروح الصغيرة)! ليفدي الله روحي لروحك».

تجاوبه: «لو، لو، كوورو! آه، ياولدي. مازلت طفلا، طريا وصغيرا، دون ادراك. سر في امان الله. ربما سيموت زوجي العجوز ذو الفم الرمادي جوندوك! وربما سيجعل الله حينذاك من روحي نصيبا لروحك. ده هواي هوي، جانو (ترديد)». الرجل: «ياروحي الصغيرة! سقط الثلج على جبل قريتنا، في الاعالي. سقط في وسط القرية التي

---

[170] الرقص يتم بشكل دائري، يمسك الواحد يد الاخر، الفتيات والشباب معا.

انهدم نصفها، الرجل، كل العالم مشغوف بالثروات والغنى الارضي، (اما – انا) ولست غير عبد مسكين لله. عشقت عيونا كحلاء وقدا رشيقا، دي هواي – هوي، جانو! ليلى. ياروحي، سقط علينا ثلج ناعم. لقد غطى جبل قريتنا وشكل تلالا كثيرة. لا تتركي زوجك يلمسك. هذا شرط شاب طريقه بعيد. ده هواي هوي، جانو!»

* * *

كي يقدر القارئ اكثر قيمة الابيات الغنائية الكردية ساتوقف هنا عن ذكر شواهد اللاوك. اذ ربما لا تستطيع الترجمة الحرفية ان تعكس جمال النص، المؤطر جيدا بالدقة اللغوية. ساقدم الان بعض النماذج من الشعر الكردي مستلة من الكراس الرائع لزميلي العالم في الشؤون الكردية توما بوا، الذي يضيف الى معرفته العميقة بهذا الشعب، اذ عاش بينهم وقتا طويلا، نقاوة رائعة في الاسلوب[171]. هذه على سبيل المثال، اغنية حزينة لفتاة كردية، خطيبها غائب منذ سبع سنوات، حيث ذهب الى الحرب، انها تقارنه بالقبج المربوط الذي يقدم طعاما لقبج آخر، فتغني له:

«جبل شاهق وشاق، حيث الاحجار تعرقل السير،

---

[171] Thomas Bois, 'L'âme des Kurdes à la lumière de leur folklore', *Les Cahiers de l'Est*, N°s 5 et 6, Beyrouth, 1946. (روح الاكراد على ضوء فولكلورهم).

آه ياشابي المجنون! انت القبج المغني والمكبل في الذرى!
ليتني واحدة من هذه الطيور المهاجرة في اعالي السماء،
لاحلق دون توقف حتى السليمانية،
واعرف كيف هو حال حبيبي».

هذه الجميلات لسن سهلات. هذه واحدة لا ينقصها التفكير وتعرف كيف تجابه الوقحين. انها تريد ان تصنع لدى الصائغ وردة من الذهب تعلقها النساء الاكراد بالمنخر الايسر. الحوار يجري هكذا:

«اصنع لك وردتك الذهبية،
دون التواء، مع الاقراص،
دون ان اضعها على السندان،
دون ضربها بالمطرقة،
ولن يتملكني، بحول الله، عليها الندم،
لو منحتيني قبلتين.
– انت لا تقدر قيمة قبلاتي، لو اعطيتني بالمقابل:
سبع قطع من النعاج،
سبع قطع من المعزان ذوات الشعر المجعد،
سبع قطع من الارض،
سبع طواحين،
سبع معاصير يديرهن الحمير،
سبعة اقداح من لبن الطيور...

كل هذا وضيع الثمن، لا يساوي شيئا!»

هذه اللوحة الصغيرة تبين مهارة وظرافة الصناع الاكراد، وهي تقدم ايضا تعددا مختصرا للنشاطات الاقتصادية الاساسية لكردستان.

ان الشابات الكرديات، كما لا حظنا ذلك، لسن في تعبيرهن الغنائي اضعف من رفاقهن. الشعر الذي نقرأه الان يغنى في احدى الرقصات الدائرية حيث الفتيان يمسكون يد الفتيات، ذراع فوق واخر تحت، يقومون بخطوات وحركات و تمايلات موزونة جيدا، والطبل والزمار في عزف مستمر:

«اخاف ان اموت ايها القلب النشوان!

هذا الخريف، ده لالو!

هذا الخريف!

فليهيئوا لحدي. ايها القلب النشوان!

تحت شجرة اللوزة. ده لالو!

آه! لو قبلت، ايها القلب النشوان!

البكلات الثلاثة للفتاة، هويو!

البكلات الثلاثة للفتاة، ده لالو!

البكلات الثلاثة للفتاة!»

لن اسجل غير هذه المقاطع. فالمقاطع الاخرى لها نفس السحر الجذاب. لنقدم اخيرا النص الكامل لتهويدة لا ارى في نفسي حاجة الى الاشارة الى جمال غنائيتها السامية:

«نعم ياسعادة فؤادي وعيني.
امك تسهر عليك
كي تكبر سريعا يا بدرخاني.
نم، ياحبي، نم، لو، لو!
لاتبق مستفيقا، هذا لايجدي الان،
اعلم ان مهدك هو كنز لك،
لا تبق بلا نوم، لان النهاية ستكون صعبة،
نم، ياحبي، نم، لو، لو!
جميل انت كاليمامة والحميل.
حتى الملائكة في نشوى بحضورك،
عرقك خال من الشوائب. امك تعرف تضحيتك،
نم، ياحبي، نم، لو، لو!
العالم الدوار ملئ بالحقد علينا،
ليس لنا حظ، قلبنا مجروح،
لم يعد لنا ملجأ غير زاوية الدار.
نم، ياحبي، نم، لو، لو!
لا مال، لا صحة، لا راحة!
الكارثة سلبتنا كل شيء
تحمل آلام الغربة صعب
نم، ياحبي، نم، لو، لو!

ان عجلة القدر كالريح

ان لم تدر اليوم، فالله رحيم!

سيأتي يوم السعادة، الله كريم!

نم، ياحبي، نم، لو، لو!

لا تتردد كثيرا، في أي حال نحن؟

لاتكن عديم الصبر! لا تشك هكذا!

مساعدة الرب وعطفه هما رفاقنا!

نم، ياحبي، نم، لو، لو!»

لشرح التلميحات التي تتضمنها هذه الصفحة الجميلة. علي ان اشير الى ان الكلام هنا يدور حول عائلة بدرخان. الرئيس الكردي لجزيرة ابن عمر، والمشهور بانتفاضته ضد الباب العالي عام 1845 حيث خسر امام قوات متفوقة فاخذ الى القسطنطينية. الا ان اسمه نقش الى الابد في الذاكرة الشعبية. وقد استمر ابناؤه في الاعمال الوطنية لعائلتهم.

ان اللاوك يقدم لنا معلومات قيمة حول الحس الكردي ويعرفنا ايضا على مجموع شعر هذا الشعب. ان يوجز هذا الشعر بشكل "بنية مولدة" اذا جاز القول: تقديم صور خاطفة، ملاحظات سريعة ومختصرة تحمل في الوقت ذاته جوهر الفولكلور. ونادرا ما تكون المواضيع فيها مرسومة. بعض التلميحات، بدون تطوير، الا ان الاعمال المهمة تفقد،

برأيي، من الحيوية والقيمة الانطلاقية ما تحصل عليه في اهتمامها بالبنية الادبية.

ويمكن الافتراض ايضا بان ما نطلق عليه اليوم اسم "لاوك" يكون قد افاد، في تراجع زمني، - واذا سمح بذلك المضوع الذي عرضنا خطوطه الكبرى - كنواة، في نقطة الانطلاق كنتاج اهم. ولو كان الحال هكذا (ولا يتعلق الامر بالشعر الشعبي الكردي وحده) فان القصائد الملحمية الكبرى، والكتب لم تكن فيما مضى شذرات، تشكل اليوم التراث الشعري الكردي، لما كانت تقدم من خلال اللاوك. ومع تقدم الزمن تقاربت اشعار اللاوك فيما بينها، كلا واحدا، قصيدة واحدة متماسكة بوحدة الموضوع وحول بطل واحد، على سبيل المثال.

ان الالماني المتخصص في الدراسات الكردية، اوسكار مان، بملاحظته التعاقب في القصائد الكردية للابيات الطويلة المتعلقة بالعرض الهادئ والرزين للاحداث، وللابيات القصيرة المضطربة في المقاطع الغنائية، يتساءل فيما اذ لا يجب ان ينظراليها كفقرات مدسوسة. وكما نلتقي ايضا في هذه القصائد الملحمية بمقاطع نثرية فان فريضة بنيانها المجزأ، السابق على الشكل النهائي المخصص فيما بعد بقطع مكررة يمكن ان تدافع عن نفسها.

وفيما يتعلق بالنظم الكردي فانه يبدو في نجاة من العروض الصارمة الموجودة عند الفرس او العرب بالتاكيد. يمكننا ان نعارض كون اللاوك شعرا حرا، ومع ان اكتشاف القافية فيها سهل الا انه، حتى

في القصائد الملحمية التي حللها اوسكار مان بانتباه، فان هناك نوعا من الحرية، لكي لا نقول فوضى. ان الراوي الكردي، حسب مان، في قرائته لقصيدة، يسرع في الالقاء اثناء الابيات الطويلة ولا يلفظ المقطع السابق للاخير بشكل واضح، في حين ان المقطع الاخير ياتي كـ "زفير واحد" وذلك لابراز القافية وعلى العكس فانه يطيل الابيات القصار من المقاطع الغنائية بالقاء ابطأ وتشديد على القافية بالطريقة الانفة الذكر. ان هذه الملاحظة تؤدي باوسكار مان الى استخلاص خلو الشعر الشعبي الكردي من الوزن وكونه لا يعرف الا القافية المذكرة والمؤنثة[172]. ان الوزن ليس محددا بالحجم، القصير او الطويل، من المقاطع الموجودة في البيت، ولكن بعدد المقاطع. فيوجد في البيت القصير 7، 8 واحيانا 11 مقطعا، وفي البيت الطويل 15 الى 20، دون ان يكون في الامكان وضع القواعد المحددة حول هذا الموضوع.

في بنية اللاوك نجد ايضا ابياتا قصيرة بـ 9، 10، 11 مقطعا، طويلة تصل الى 16 وحتى 19 مقطعا. ونجد ايضا مقاطع شعرية تتجاوز في اكثر الحالات 4 ابيات. وهذا ما اعتبره مان من مميزات الشعر الشعبي الكردي ويقربها من اليشت في الآفيستا، اقدم الاشعار الايرانية، ومن الشعر الشعبي الفارسي الحديث، والذي عرفنا عليه

---

[172] Oscar Mann, *Die Mundart der Mukri Kurdin*, t. II, *Inhalt und form der Ost-Kurdistan Volksepik*, Berlin, 1909.

الاستاذ ف. م. جوكوسكي. واخيرا فان القوافي هي، باستثناء قليلها، مؤنثة.

بتسجيل رأي مان حول غياب الوزن في الشعر الكردي، لا اخفي وجود مناقشة مازالت مفتوحة، وان صديقي الوطني الكبير الشاعر الكردي كامران عالي بك بدرخان[173] يقف معارضا لنظرية مان. وان لويس مارن، المعروف بدراسته حول الوزن والذي يوليه اهتماما انتوكرافيا كبيرا، لا يستطيع الاعتقاد بغياب الوزن عند الاكراد. ولكي نصل الى قناعة في هذا المجال يجب، دون شك، امتلاك مجموعة من اللاوك والاشعار الغنائية المماثلة اكثر مما لدي.

على اي حال، ملاحظاتنا تبين الفائدة التي يمكن جنيها من دراسة نماذج من الاشعار الشعبية الكردية. وحتى لو لم تقدم غير طابع جزئي، فانها تزودنا بمصادر ثم تلقي ضوءا جديدا على الابداع الشعري الكردي.

ان اصالة اللاوك تظهر بصورة مدهشة لو قارناه. على سبيل المثال، مع القصيدة. اسلوب التعبير الغنائي الاكثر انتشارا عند العرب، والذي يبدو قريبا جدا من النماذج الكردية المذكورة. ان اللاوك الكردي لا يحتوي، فيما يخص الشكل والمضمون، اية قاعدة صارمة. في حين تبقى القصيدة محدودة بقوالب لا تتنوع. وتشمل قسما يسمى النسيب

---

[173] الحاضرون في ندوتي، في الجمعية الاتنوكرافية في باريس حظوا بالاستماع له وهو يقرا بالفرنسية والكردية.

حيث يتحدث الشاعر، بوقوفه على الاطلال المهجورة من قبل عشيرة حبيبته، عن الذكريات، مشهد الفراق، مفاتن الجميلة. ثم يستطرد الى ذكر الخمر وملذاته. يصف ابله (او جواده)، يصف رحلاته عبر الصحراء، الليل، الحيوانات التي صادفها، العيد، ونراه في القسم الثاني فقط، اي القصيدة، يعطي حرية لخياله كي يحلق.

لاي شيء يجب ان ينسب هذا الفرق؟ باختياري البدوي في عصر ما قبل الاسلام، للمقارنة مع الاكراد الرحل، قابلت وسطين اجتماعيين، حالتين من التفكير متشابهتين بشكل دقيق وهما في نفس المستوى من التطور: فالفرق اذا يتعلق بالمميزات القومية لدى الشعبين. ويضاف الى ذلك التطور الكبير للعروض والموسيقى في الشعر العربي واستجابتها بشكل رائع للقراءة الموزنة، في حين لا نجد لهذا شبيها في الشعر الكردي.

وهذا يتعلق بطبيعة الحال. بالشعر الشعبي الكردي وليس بالاثار الشعرية المتقدمة التي تتماثل والنماذج العربية او الفارسية. ان اوسكار مان جمع من غزل وقصائد الشعراء الاكراد ما يقارب من مائتين. لا يهمنا هنا مؤلفي هذه القصائد. المتعلمين ومتخرجي المدراس الاسلامية والمتخصصين في الادبين العربي والفارسي، بل ينصب اهتمامنا على محاولة استخراج العناصر الاصيلة حقا من الغنائيات الرائعة عند الاكراد اعتمادا على نظريتي للشعر العربي. هذان شاهدان

اخذناهما من كتاب ت. ي. لورنس، الذي لا يمكن انكار معرفته بالحياة البدوية.

«... كان هناك شعراء يغنون لنا اشعارهم حول الحرب. مقاطع طويلة تقليدية ذات صفات منتظرة، مشاعر منتظرة، وحتى حوادث منتظرة، نقشها كل جيل على اجسام قديمة»[174].

وفي مكان اخر: «فجاة، جاء انذار وجيز من الطبول: اخذ شاعر الجناح الايمن يغني بصوت عال مقطعا مرتجلا حول فيصل واللذات التي سوف يقدمها لنا من الهودج. ورد الجناح الايمن والذي كان يستمع بانتباه منقطع النظير. الابيات، مرة، مرتين، وللمرة الثالثة بمزيج من الفخر والرضى والسخرية. ولكن قبل اطلاق البيت للمرة الرابعة، وكأنه علم، انطلق الجناح الايسر بجواب مرتجل ايضا، من النفس البحر وذات القافية، مخفضا بذلك صوت منافسه. الجناح الايسر اطلق دون توقف صياح الانتصار. دقت الطبول، ورفعت الرايات القرمزية، واخذ جميع الحرس، الجناح الايمن والايسر والوسط يغنون نشيد الفوج...»[175]

---

[174] (أعمدة الحكمة السبعة) T. E. Lawrance, *Les sep pilliers de la sagesse*, p. 159.

[175] نفس المصدر، ص 187.

يبدو ان الشاعر العربي المرتجل يقترب هنا اكثر من زميله الكردي، مع هذا الفارق البسيط، حيث ان لورنس يذكر: «في نفس البحر وذات القافية»، وهذا يثبت انه حتى الارتجال يحافظ على قواعد العروض عند العرب. في حين يصعب اتباع هذه القواعد عند الاكراد.

تبقى ملاحظة اخيرة حول الفن الشعري الكردي. ايا كانت ميزته، فهذا فن يدرس. يذكر اوسكار مان[176] بان في كردستان مدارس للشاير (كلمة عربية مستعملة عند اكراد مكري) ودنكبيز (كما يسمون في القسم الشمالي الغربي من كردستان)، اي راوي الشعر. هذا النوع من مدارس الغناء يُعنى فيها بالشعر الملحمي. يذهب ذوو الاصوات الجميلة من الشباب الى المعلم (وستا بالكردية واُوستاد بالفارسية) لمتابعة دروسه ويتعلمون خبرات هؤلاء المعلمين الذين توارثوها عن طريق النقل الشفهي. ويوجد عدد قليل جدا من الرواة ممن يعرفون القراءة والكتابة. ولو ان هؤلاء الشباب اظهروا قابليات خاصة فانهم سوف يذهبون الى معلم ثان وثالث ويعدون من بين تلاميذهم. ويقدم هؤلاء التلاميذ، بطبيعة الحال، شيئا من الاجر لمعلميهم، يؤدون لهم بعض الخدمات المنزلية، او يقدمون لهم بعض المال اعترافا بفضلهم.

ترى اين يمارس فن الغناء؟ قبل كل شيء في بيوت النبلاء، حيث يقضي الهواة اوقات الليل بالاستماع الى أغاني المغنين، ولا يبخلون

---

[176] انظر الى الجزء الاول من كتابه المذكور، ص 30-38.

عليهم بالمال (خَلات) وكان يعني (ملابس الشرف)، ثم (الهدايا). ومن المعتاد ان يقدم للراوي، في القرى، وجبة من الرز وكذلك في مقاهي (جايخانات) المدن المزدحمة عادة، حيث يزداد عدد المستمعين الى المغني.

وفيما يتعلق بهذا الموضوع يشير اوسكار مان الى ان اعماله مع رحمن (كردي، زوده بالمعلومات) كانت تخلق في ساوج بولاق (مهاباد في الوقت الحاضر) جوا من العيد المستمر ولم يكن رحمن ياتي من القرية الى المدينة الا مرة واحدة في العام وليوم واحد. كان يشرف بزيارته، اثناء ساعات فراغه، واحدة من المقاهي. ولم يكن من السهل ولم يكن عادة للمستشرق الالماني انتزاعه من مستمعيه المتحمسين والاتيان به الى البيت.

ويلاحظ مان بان اداء نص غنائي من قبل المغني رتيب جدا لذوقنا نحن[177]. ولاحظ رحالة قدماء بان المغنين الاكراد يمتلكون حسا معبرا جدا في التنغيمات والانتقالات. ترى هل يسير هذا الفن، كعنصر مميزة اخرى للفردية الكردية، نحو الضياع؟

ان الذاكرة القوية لهؤلاء الرجال تبدو مرتبطة تماما بالغناء. فرحمن لم يكن قادرا على تذكر الابيات التالية اثناء التحرير، لو لم

---

[177] يقصد ذوق الغربيين المتعودين على الاستماع الى اغاني يختلف اداؤها عن اداء الاغاني الشرقية. (هـ. م.)

يعتمد الغناء في ذلك. وطبيعي ان هناك قسما من القراءات المرتجلة، الا انها اقل بكثير مما نعتقد اول الامر.

في ختام هذه الملاحظة السريعة حول الشعر الكردي لا استطيع ان اتذكر دون تاثر، ملا سعيد، قاضي كردستان ومعلمي في اللغة الكردية قبل ثلاثين عاما في اورمية (رضائية في الوقت الحاضر). كان انسانا ذا ثقافة كردية كاملة، يعرف العربية والفارسية والتركية مثلما يتقن لغة امه. كان رجلا نبيلا ايضا، وبالمعنى القديم لهذه الكلمة، مع تفكير واسع جدا، بعيد عن كل تعصب. انا ادين له بالكثير من معلوماتي حول كردستان. لقد عمل كل ما في وسعه لافهامي روحه. ليجعل الله روحه في سلام!

قصائد كردية للدكتور كامران بدرخان

اليتيمة

تعالي، لنذهب معا
الى اعماق الغابة
حيث تختفي بقايا الليل
حيث تغدو الاوراق الذابلة سريرا
اجمل من مضجع الملك
سنذهب الى مكان
نختفي فيه عن النور
حيث لا شيء يستطيع تعقبنا
ولا حتى ظلال خطواتنا
في ذلك الظلام الخلاب
اريد ان ارى
عينيك
سيغدو الضجيج بعيدا
وحين ارهف السمع الى صدرك
اسمع صوت روحك العذب
هذه اليتيمة
التي ابيض شعرها قبل الاوان

السلطانة

كشعاع الشمس

في الظلام،

في قصر معتم،

تتألق السلطانة كحيلة

وجه جميل يتامل المرآة.

السلطانة في حمامها،

ياسمينة

الماء الحار يداعبها

والدوار

حول ثدييها حيث الحليب

لم يجر بعد

في عينيها الفائرتين حنين

احلام يملأها السحر

شقراء فواحة،

تتأمل هروب الحياة

كما يهرب الدخان.

في بساتين الشرق البعيدة

النور كالسائل يرتعش

من تدفق الصور

التي فقدت صبرها

بدوية في خيمتها

السلطانة تبحث عن قدرها،

في فضاء خاو.

روحها مليئة، بالاسرار،

كسرير الموت،

ترقد،

وحولها اوراق ذابلة،

وازهار،

انها صامتة،

جرة طفحت بالدموع

وبعطش لا يرتوي

شفتاها تبحثان عن شفاه

للقبل.

المراعي

تعال، لنحلم معا،

ونحن على هذا الرمل

لنتدفأ بالنور المضطرب،

في هذه الخيمة الوضاءة،

ونتعزى بالنسيم،

بعيوني اداعب النجوم،

المعلقات بهذا النسيج الجميل،

يد في يد،

وشفاه على شفاه،

نرتعش

كجسم

اصابته الحمى

لننسى الزمن،

الشتاء، الخريف،

الربيع،

العذاب والنشوة

وحر الصيف.

ولكي نشعر بالحب،

اكثر الشموس حرارة،

اللذيذ كالعسل،

اللاسع كالنحل،

الخادع،

كرغبة الاشياء،

الحقيقي

كاشواك الازهار.

هكذا حكى الراعي،

لجميلته،

والسنونو تمر

في السماء،

اجابت الجميلة،

قبلني ساتركك،

انت فقير،

وكالريح بلا مأوى.

رباعية

على الأزهار دموعا ارى

وما للطبيعة من اكدار

أوهذا هو الليل بكى

في حنوه على الازهار.

المحتويات

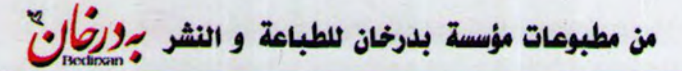
L'envoyé de Napoléon dans sa prison kurde

et d'autres textes

Traduction de Halkawt Hakem

Editions Bedirxan
Erbil, 2013

مايجمع هذه الكتابات هو الموضوع العام، الأكراد، اللغة التي كتبت بها أصلا واللغة التي ترجمت اليها. منها ما نُشِر قبل مايقرب من عقدين من الزمن ومنها ما لم ينشر حتى الآن، كملاحظات باَسيل نيكيتين التي كتبها بُعَيْد الحرب العالمية الاولى، وتعود الترجمة الى ثمانينات القرن الماضي. من هذه الكتابات ما نشر باللغة الاصلية قبل ما يقرب من قرنين، كما هو الحال مع ما كتبه ممثل نابليون حول الأكراد وحول سجنه في كردستان تركيا. ومنها ما كتب قبل اكثر من عشر سنوات بقليل، كما هو الحال بالنسبة لمقالتي حول مدينة كركوك في كتابات الرحالة الفرنسيين.



bedirxanpp@gmail.com - www.bedrxan.net

تصميم: يعقوب يوسف